دار روافد للنشر

إسلاميات

السوانح

حميد بن خيبش

دار حروف منثورة للنشر الإليكترونى

مؤسس الدار

مروان محمد

نوع العمل: إسلاميات

اسم العمل: السوانح

اسم المؤلف: حميد بن خيبش

الناشر: حروف منثورة للنشر الإليكترونى

الطبعة: الأولى

تصميم الغلاف : فريق الدار

تنسيق داخلي: فريق الدار

Website: https://horofpdf.wixsite.com/ebook

Fan page: http://facebook.com/herufmansoura

Email: herufmansoura٢٠١١@gmail.com

دار حروف منثورة هي دار نشر إلكترونية لخدمات النشر الالكتروني المجاني ولا تتحمل أي مسئولية اتجاه المحتوى الذي يتحمل مسئوليته الكاتب وحده فقط وله حق استغلاله كيفما يشاء

إسلاميات

السوانح

حميد بن خيبش

توطئة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة و السلام على سيدنا محمد أشرف المسلمين، وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

تنتاب الباحث في أروقة المكتبة الإسلامية سوانح وخطرات، تُسائل البون الشاسع بين الرصيد الفكري والثقافي للمسلم المعاصر، وحالة التأخر المزمنة التي تضغط على حاضره في شتى الميادين.

هل يتعلق الأمر بسوء فهم وغبش في الرؤية؟

أم بحاجز نفسي متولد عن التبعية والولع بالغالب؟

ثم كيف نكسر ألواح الجليد المنتصبة بين واقع متشابك الهموم و الأسئلة،ونصوص مفعمة بالأجوبة؟

تسعى هذه المقالات إلى الإسهام في بلورة تصور يستدعي النصوص، لا لتبجيلها أو إسقاطها على الراهن، وإنما لاستلهام أفكار ونماذج، تبدد شيئا من الحيرة والغربة.. والامتعاض!

أسأل المولى عز وجل التوفيق والسداد، والعفو عن الزلات

حميد بن خيبش

إيموزار كندر في ١٩ شوال ١٤٤٠هـ

المغرب

" إلهي..لا تعذب لسانا يخبر عنك، ولاعينا تنظر إلى علوم تدل عليك، ولا قدما تمشي إلى خدمتك، ولايدا تكتب حديث رسولك. فبعزتك لا تُدخلني النار، فقد علم أهلها أني كنت أَذُبّ عن دينك."

ابن الجوزي

الفهرس

أفي الله شك؟ ٨
إذ هما في الغار ١٦
أقرئ خديجة السلام! ٢٣
اِلْزم غَرزه! ٣١
أذى الجيران ٣٧
ابن امرأة تأكل القديد ٤٣
البلايا تحن إلى اللبيب ٥٠
الحب في شريعتنا! ٥٦
الامتنان ٦٣
الداعية المكلوم ٦٨
التمـادي ٧٥
القراءة «الحِمارية» ٨٠
الوقائية نهج إسلامي ٨٦
السيرة النبوية..رهان تربوي ٩١
تعليقة الغزالي ٩٧
ثورة الفقيه ١٠٢
حِزب السفهاء ١٠٨
خاتم من حديد ١١٤
دجال الثورة ١٢٠

درس القناعة ١٢٦
سئمت تكاليف الزواج ومن يعش.. ..... ١٣١
سووا صفوفكم! ١٣٧
شوق الصالحين ١٤١
عالَم أبي ذر ١٤٥
عدل الفاروق ١٥٨
قمح على رؤوس الجبال! ١٦٨
قلب رحماني ١٧٣
قارئ القرآن.. دوت كوم ١٧٨
مات في حديده! ١٨٤
مالي وللناس؟ ١٩١
مصحة الترمذي ١٩٧
كيف يعصي المؤمن؟ ٢٠١
مناديل سعد ٢٠٣
نبي الطفولة ٢١٧
نصيحة الباجي ٢٢٧
هؤلاء صبيانهم! ٢٣٣
هوامش إلهاء ٢٤٠
يدعو الله ألا ينام! ٢٤٧

أفي الله شك؟

تَرُدّ الغالبية المسلمة بالنفي، إقرارا منها بأن المسلم لا يمكن أن تنتابه شكوك إزاء خالقه. غير أن الاختلالات القيمية والسلوكية التي باتت تهيمن على الواقع اليومي تدفع باتجاه تعزيز الشك، أو بالأحرى فصل ادعاء المعرفة بالله عن تجلياتها المفترضة في السلوك، والتعاطي مع الوقائع والأحداث.

تلك المفارقة الحادة بين الوجدان والسلوك عبر عنها زاهد خراسان: **شقيق بن إبراهيم** بمقولة تُنسب إليه في كتب الرقائق ومجالس الوعظ، وتثير مبكرا مسألة اتساع الهوة بين التصديق القلبي وإقرار اللسان من جهة، وعمل الأركان من جهة أخرى. يقول **شقيق**:

" وافقني الناس في أربعة أشياء قولا وخالفوني فيها فعلا:

قالوا: إنا عبيد لله تعالى،ويعملون عمل الأحرار..

وقالوا: إن الله كفيل لأرزاقنا،ولا تطمئن قلوبهم إلا مع شيء من الدنيا..

وقالوا: إن الآخرة خير من الدنيا، وهم يجمعون المال للدنيا والذنوب للآخرة..

وقالوا: لابد لنا من الموت، ويعملون عمل أقوام لا يموتون."

لو راجعنا قائمة الهموم التي يثيرها المسلم المعاصر عبر الفضائيات والإذاعات، ومواقع التواصل الاجتماعي، لتبينت لنا الغفلة، أو التغافل ربما، عن المفارقات الأربع التي أثارها **شقيق بن إبراهيم** في مقولته. فهناك إقرار مسبق بالإيمان بالله، وبأن النبي صلى الله عليه وسلم تركنا على المحجة البيضاء التي يحقق منهاجها طمأنينة النفس وسكينة القلب، وأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، فلم يدع لأحد من خلقه سطوة على أرزاق الآخرين.

لكن بالمقابل، تتضخم الشكوى حول تفكك العلاقات، والطمع الدنيوي الذي أيقظ المارد فينا، وكشف في محطات عديدة عن أبشع وجه للإنسانية، ممثلا في التقتيل والتهجير، وتخريب بيوتنا بأيدينا دون الحاجة لإرهاق العدو بتكاليف زائدة!

انخرط المجتمع المسلم رغم أنفه فيما يعتبره الدكتور **دافيد شيهان** "عصر القلق"، ويختلف الأمر هنا عن حالة القلق السوي الذي كان ينتاب أسلافنا حين يواجهون مواقف الحرب أو أخطار البيئة. فما

نعاينه اليوم هو قلق متعدد الأوجه والمظاهر، يصيب الناس دون سبب وجيه، برأيه، فيشل قدرتهم على النهوض بأعباء الحياة ومسؤولياتها. وإذا كان شاغل الدكتور هنا هو بحث أساليب العلاج، فإن تعاليم الإسلام تربط بواعث القلق بهيمنة الأسباب على عقل ووجدان المسلم، إلى الحد الذي يغفل عن قدرة الحق سبحانه، وانفراده بالتدبير والأمر.

" إنا عبيد لله تعالى، ويعملون عمل الأحرار.."

شكلت الأدبيات الحديثة للحرية وحقوق الإنسان منطلقا لتأليه الإنسان، وحفزه على الانفلات من أية وصاية أو مرجعية تكبل حريته، أو **هَواه** إن صح التعبير. فلا مبرر لحظر أو نهي، ولا حاجة للولاء إلى تعاليم مسطرة بعد أن بلغ الإنسان رشده، ورفعته قفزات الاكتشاف العلمي إلى وضع غير مسبوق.

وكان على البشرية أن تعاين أوجاعا واضطرابات عديدة، قبل أن تستفيق على حقيقة مؤلمة مفادها: أن إطلاق يد الإنسان في الطبيعة والكون من حوله مفسدة عظيمة، ولابد من ميثاق يقيد أهواءه، ويحد من غلوائه.

من أبرز تجليات الحرية المفرطة وتأليه الإنسان ما يعيشه كوكب الأرض جراء التلوث ومخلفات الانتهاك المتزايد لموارد البيئة. ولعل الوضع المفارق في المجتمع المسلم أننا نجد القرآن الكريم يحدد في آيات عديدة مبدأ التسخير كشكل للعلاقة بين الإنسان والموجودات من حوله، وهو مبدأ يقوم على الانتفاع لا التملك والهيمنة، بينما يغلب على النشاط الإنساني اليومي منحى مخالف، نتيجة التأثر بالمدخل الغربي الذي يعتبر الأرض ملكا للإنسان يتصرف فيها دون حسيب أو رقيب. فصارت مكبات القمامة جزءا من المشهد اليومي الذي يتآلف معه المسلم دون اكتراث، رغم أنه يتلو في صلواته آيات الجمال، ويستمع في المجالس لأحاديث الطهارة!

"إن الله كفيل لأرزاقنا،ولا تطمئن قلوبهم إلا مع شيء من الدنيا.."

في بعض خواطره الإيمانية التي صدرت ضمن كتيب بعنوان "**تلك هي الأرزاق**" يوسع الشيخ **محمد متولي الشعراوي** رحمه الله دلالة الرزق ومقتضياته لتضيء جوانب من حياة المسلم، وتَنفُذ للحكمة الإلهية في العطاء والمنع. ومن بين هذه المقتضيات أن الرزق هو كل ما ينتفع به الإنسان، ماديا كان أو معنويا. فالأدب، والخلق

الطيب، وسماع العلم، والصدق وغيرها هي من جملة الأرزاق التي لا تقل شأنا عن المال والبنين والحرث.

وعطاء الله في الكون نوعان: نوع يفعل لك دون أن تفعل أنت شيئا، كالشمس والريح والمطر وبقية عناصر الطبيعة التي تمد الإنسان بحاجاته دون أن يكون له جهدا فيها.

ونوع ينفعل بك، فإذا فعلت أعطاك وإن لم تفعل فلا يعطيك. وهو كل ما يحتاج الإنسان إلى استخدام عقله وطاقته لتحصيل المنافع منه.

ومادام قوام الكون هو استبقاء حياة الناس فإن الذي خلق الخلق متكفل بأرزاقهم. ولا يجدر بالمسلم أن تثير مخاوفه دعاوى ندرة الطعام التي تلوح بها الدراسات والحسابات المنفصلة عن جذوة الإيمان. يقول الشيخ معلقا على هذا الصخب: "حسب الإيمان أنه يريحك من البحث في أمر مستقبلي، لماذا؟ لأنك ما دمت ستأخذ المسألة بالإيمان فاعلم أن الذي خلق الخلق لابد أن يعطيهم الرزق الذي به قوام حياتهم. لكن هناك فرق بين رزق **ضروري**، ورزق **ترفي** تريد أن تترقى فيه."

أما فيما يتعلق بالمال الزائد عن الحاجة، والذي فتح اليوم باب العداوة والشقاق بين الأهل على مصراعيه، فهو فائض المال الذي كسبه الإنسان من جهده وطاقته. وبما أنه لا يود أن يفارقه فإن عليه أن نفقه فيما ينفعه، وخير ما ينفعه أن يعمل به لآخرته!

إن فلسفة الرزق في الإسلام جديرة بأن تتخذ لها اليوم موقعا حيويا في النقاش الدائر، لتحرير المسلم المعاصر من مخاوف تثيرها التقلبات العالمية في مجالي السياسة والاقتصاد، وتعيد للنفوس ثقتها بأن فوق الأسباب ربا يضع كل شيء في موضعه عن علم وحكمة، مصداقا لقوله تعالى: ((ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)) سورة الملك: ١٤.

"إن الآخرة خير من الدنيا، وهم يجمعون المال للدنيا والذنوب للآخرة.."

يتولد عن الفهم الخاطئ لحكمة الله في الأرزاق انحراف سلوكي يجعل من المسلم كائنا دنيويا يعبد شهواته وطموحاته، ويعطل بالتالي مقتضيات السير المتوازن بين حرث الدنيا وحرث الآخرة.

و الراصد لواقعنا اليومي يلمح ذاك الانفصال الحاد بين حضور المسلم داخل بيوت الله، وسلوكه في المتجر أو الإدارة أو غيرها من

مرافق المجتمع. إننا نجد أنفسنا للأسف أمام تعبير صارخ عن الفصل بين الوجدان والسلوك، بين لوازم الإيمان ومبررات العراك اليومي تحت مسمى "لقمة العيش". تلك المبررات التي يلوذ بها المسلم عند انتهاكه لحدود الله، والإقبال على المحرمات، واجتراح الكبائر.

"لابد لنا من الموت، ويعملون عمل أقوام لا يموتون."

بعض من يشمئزون من ذكر الموت، يربطون الحديث عنه بنزول الفاجعة، وما يليها من مراسيم الدفن وحضور المآتم. أما حين يدور المسلم مع دولاب الحياة اليومية فينبغي تعطيل ذكره حتى لا ينغص لذة العيش، أو يخمد جذوة الطيبات في نفوس المقبلين عليها!

ولعل السبب هنا راجع إلى عدم إدراك الفرق الحاسم بين الموت كنهاية، وهو التمثل السائد للأسف لدى المقبلين على الحياة من منظور التمتع والتهالك المفرط على الملذات، وبين الموت باعتباره نقلة حيوية صوب الخلود الذي يصفه القرآن بالنعيم الأبدي.

أما أسوأ المفارقات التي تسود اليوم أوساط الأسر المسلمة فهي التخويف من الموت، وتنشئة الصغار وفق منظور يستعيد الموت باعتباره مصيرا مشؤوما، بدل كونه حقيقة حاسمة أوصى النبي

صلى الله عليه وسلم بالإكثار من ذكرها، فكان من الطبيعي أن تتراجع في نفوس النشء قيم التحمل والصمود أمام أدنى مخاطر العيش!

إذ هما في الغار

تلوح في التداول اليومي بوادر الشكوى من تردي العلاقات الإنسانية، أمام هيمنة القيم المادية البغيضة التي يحتكم فيها الفرد إلى ما يجلبه الرابط الإنساني من منفعة، أو مصلحة، أو لذة.

وفي سياق اجتماعي مضطرب كالذي نعيشه،لا يُخفي المسلم توتره وحيرته إزاء المفارقة المؤلمة بين معالم الصداقة وآدابها وشروطها، كما يحددها النص الديني، والمنظور المادي الذي يبذل وسعه اليوم لتحييد شبكة العلاقات الإنسانية، وعزلها عن الثوابت والمرجعية الدينية.

يزخر التراث الإنساني بكتابات حول الصداقة والصديق، بدءا من أرسطو ووصولا إلى مبحث قائم بذاته في علم النفس المعاصر يصطلح عليه "سيكولوجية العلاقات بين الأشخاص". وباستعراض أهم المصنفات في هذا الباب، يقف المرء على محددات للصداقة، ونماذج لخبرات شخصية وانطباعات لا تخلو من وجاهة في الكشف عن قوانين التفاعل بين الأفراد، والوظائف النفسية التي تتولى الصداقة الاستجابة لها. وكعادة السلف في تتبع آثار الحكمة والسعي خلف منابعها أنى وُجدت، فإن المكتبة الإسلامية لم تخل

بدورها من انشغال بهذا المبحث، وحرص على تحديد خواص الصداقة وأسسها وفق منظور قرآني يتيح نفاذا أعمق إلى جوهر النفس الإنسانية وتقلباتها. نستحضر في هذا الباب ما كتبه الإمام **ابن حبان البُستي** في **(روضة العقلاء ونزهة الفضلاء)** عن الحث على صحبة الأخيار، والزجر عن صحبة الأشرار. وحديث الإمام **أبي حامد الغزالي** في (**بداية الهداية**)، ناهيك عن الآراء الفريدة التي يعرضها **أبو حيان التوحيدي** في كتابه (**الصداقة والصديق**).

هذا الانشغال إنما يعكس في الحقيقة امتثالا للتوجيه القرآني والنبوي في حثهما على جعل المسلم إنسانا اجتماعيا، يستشعر مسؤوليته الكاملة تجاه الآخر، ويتجاوز بتدينه حدود الذات وما يكتنفها من أنانية وانطواء وتقوقع، ليندرج في شبكة من العلاقات الإنسانية التي تحفظ التماسك الاجتماعي.

إن في علاقة النبي صلى الله عليه وسلم بالرعيل الأول من المسلمين مجالا رحبا للتأسي، والتقاط الإشارات الدالة والنماذج التطبيقية التي تسهم اليوم، ولا شك، في إيقاظ الوازع الداخلي والالتحام بالآخر، ضمن علاقات منزهة عن الأغراض الضيقة والمنفعة الشخصية. فقد حفظ لنا التاريخ مواقف جليلة يستحثنا الحاضر المثقل بعوامل التفسخ والضياع على استدعائها، صونا

لكيان الأمة، وسعيا لاستكمال شروط انبعاثها وتجديد البنيان. ومن نماذج الصداقة التي تسترعي انتباه كل متصفح لتاريخ الدعوة الإسلامية، صحبة أبي بكر رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم التي مهرها القرآن الكريم بتوقيع خالد (ثاني اثنين إذ هما في الغار) **(التوبة: ٤٠)**.تلك العلاقة التي حوت من السمات المميزة ما يضعها خارج المألوف في علاقة تابع بمتبوع، وتحددت من خلالها مكانة أبي بكر كصاحب للنبي الخاتم. ومن الشواهد التي تؤكد هذا التشريف ما حكاه أبو الدرداء رضي الله عنه قال:" كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أقبل أبوبكر آخذا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:أما صاحبكم فقد غامر، فسلم وقال: يا رسول الله إنه كان بيني و بين ابن الخطاب شيء فأسرعت إليه ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي فأبى علي فأقبلت عليك، فقال: يغفر الله لك يا أبا بكر.

ثم إن عمر رضي الله عنه ندم فأتى منزل أبي بكر فسأل: أثم أبو بكر؟ فقالوا: لا، فأتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسلم عليه، فجعل وجه النبي صلى الله عليه وسلم يتمعر حتى أشفق أبوبكر رضي الله عنه فجثا على ركبتيه فقال: يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم، مرتين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله بعثني إليكم

فقلتم: كذبت وقال أبو بكر: صدقت، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟ مرتين. فما أوذي بعدها." **(صحيح البخاري: ٣٦٦١)**

إن ما حظي به أبو بكر رضي الله عنه من شرف الصحبة، لم يكن سوى تتويج لأداء حقوقها في ظروف عصيبة، قلما يلزم فيها المرء غُرز أخ أو صديق! فهاهنا نبي يُكذبه قومه بعد أن وشحوه ردحا من الزمن بوسام الصدق والأمانة؛ ويلي التكذيب تضييق واضطهاد وحصار، ثم سعي مشؤوم لاغتياله لولا العصمة والتأييد الإلهي. وفي خضم هذه الأهوال والأحداث يبذل أبوبكر ثروته ومكانته الاجتماعية، ويعرض نفسه للأذى أداء لحقوق الصحبة، وما تلزمه به من تصديق ومؤازرة. قد يقول قائل بأن أي رجل من القلة المؤمنة آنذاك سينهض بمثل ما قام أبو بكر من التضحية والبذل، غير أن في الحديث النبوي شواهد تؤكد عمق الصلة وتميزها عما يمكن أن يحتمله أي تابع لهذا الدين من أعباء النصرة. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث المرفوع الذي رواه القاسم بن محمد بن أبي بكر: (ما عرضت الإسلام على أحد إلا كانت له عنده كبوة، غير أبي بكر فإنه لم يتلعثم).

ولما أذن الله لنبيه بالهجرة تولى أبوبكر وضع الترتيبات اللازمة، وتشكيل خلية يقظة قوامها الابن والابنة والخادم. وأظهر استعدادا لمواجهة كل المخاطر التي يمكن أن تعيق المسير إلى يثرب، فكان رضي الله عنه يمشي بين يديه ومن خلفه، ودلف الغار قبله ليقي صاحبه من مكروه قد يصيبه. وحين وقف الكفار في مدخل الغار تملك الخوف أبا بكر خشية أن يقع النبي صلى الله عليه وسلم في أيديهم فجاء التشريف من السماء ليرقى بهذه الصحبة إلى المعية الإلهية:(**إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم)- التوبة: ٤٠ -** ولحظة الغار هذه من أشد المواقف التي تُمتحن فيها الصداقة، وتظهر مؤشرات عمق أو سطحية التفاعل بين شخصين أو أكثر. ولعل من أهم ما خلصت إليه الدراسات المهتمة باستكشاف مظاهر الارتقاء الاجتماعي، هو التأكيد على شرط التماثل والتقارب في تشكيل الصداقات، إذ يسهم تماثل الأصدقاء من حيث سمات الشخصية والاتجاهات والمعتقدات في تعميق الصداقة و استمرارها

وصمودها أمام المحن والتقلبات[1].وهو التماثل الذي يلمسه كل دارس لشخصية أبي بكر الصديق ومواقفه التي تعكس ثقة وتصديقا لا حدود لهما بكل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، لذا لما دخل النبي دار أبي بكر وقال: إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة، بادر أبوبكر إلى التماس ما لا يمكن أن يصدر إلا عن صديق حميم: الصحبة يا رسول الله! يقول **شوقي أبو خليل**: (الصحبة كلمة عظيمة فيها سر عظيم، وصحبة الجسد صحبة جيدة فيها بركة وخير، ولكن صحبة الروح إلى الروح هنا السر الأعظم، إنها صحبة تلق وتعلم، وصحبة إيمان، وصحبة نور وعروج. صحبة أبي بكر للنبي الكريم صحبة تلميذ لمعلم، وصحبة طالب لمطلوب. فوقر في قلب الصديق نور وإيمان ما لو وُزع على الخلق لوسعهم[2].

شكلت مرحلة ما بعد الغار منعطفا جديدا في مسار الدعوة الإسلامية، ارتقت خلاله الصحبة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر رضي الله عنه إلى تشابه ملفت في الاختيارات والغايات، ومستوى من التفاهم تكفي فيه اللمحة والإشارة التي لا

---

[1] د.أسامة سعد : الصداقة من منظور علم النفس.عالم المعرفة.عدد١٧٩.الكويت ١٩٩٣ . ص ٧٤

[2] شوقي أبو خليل : الهجرة حدث غير مجرى التاريخ. دار الفكر.دمشق ١٩٨٥ .ص ٨٤

يقف على معناها سواهما. عن **أبي سعيد الخدري** أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس يوما على المنبر فقال: إن عبدا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عند الله فاختار ما عند الله، فبكى أبوبكر ثم قال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله.قال أبو سعيد: فتعجبنا له، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد يخير ويقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله! قال: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخير، وكان أبوبكر أعلمنا به! **(صحيح البخاري: ٣٦٤٠)**

إنها الصداقة المتينة وصحبة الخير التي تؤثر سمو الروح على متاع الدنيا وزخرفها.

صحبة تجلت أبهى معانيها في طمأنة النبي صلى الله عليه وسلم لصاحبه لحظة الغار والترقب والقلق: ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟

صحبة هي المثال الذي نرجو اليوم أن يُحتذى في زمن عز فيه الصديق وقل الوفاء، حتى أن فيلسوفا سئل: من أطول الناس سفرا؟ فأجاب: من سافر في طلب صديق!

أقرئ خديجة السلام!

كلما دنا الاحتفال باليوم العالمي للمرأة إلا وسارعت الهيئات الحكومية والمنظمات الحقوقية إلى الإشادة بالاجتهاد القضائي، وبترسانة القوانين والتشريعات التي صودق عليها لحماية المرأة من كل أشكال العسف والقهر والتمييز. بل ونشهد سباقا محموما بين الدول للإشادة بواحات التكريم التي تحيا فيها نساؤها، وسط صحراء الذكورة والأعراف البالية. لكن ما إن تغرب شمس هذا اليوم حتى تثار الأسئلة مجددا حول صدى هذه القوانين والتشريعات في واقعنا اليومي، وأثرها على النسق القيمي الذي يحكم العلاقة بين الجنسين.

إن الأصل في القوانين أن تصون الحد الأدنى من الأخلاق الذي يضمن بقاء المجتمع الإنساني،بينما تتحمل الأسرة والمدرسة عبء التنشئة الاجتماعية التي بمقتضاها يعزز الأفراد رباطهم الإنساني، ويتمثلون،ومن ثم يندمجون في،نظام قيمي يضفي على الوجود معناه ومبناه وإيقاعه المتوازن.وفي القرآن الكريم ما يؤكد على تلازم التشريع والأخلاق لتقويم الانحراف، وتمتين النسيج الاجتماعي، ففي سورة الطلاق نلمس حرص الإسلام على مزج

التشريعات بالتربية الأخلاقية، والأحكام العملية بالآداب النفسية مثل " سيجعل الله بعد عسر يسرا " و" ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا " و" من يتق الله يكفر عنه سيئاته و يعظم له أجرا "والويل للبيوت، يقول الشيخ **محمد الغزالي**، إذا تركت منطق الدين والأخلاق واتجهت إلى القانون والقضاء!

وبما أن بلوغ الرؤية الإسلامية المثلى للعلاقة الإنسانية يستلزم كيانا حيا متحركا يترجم مبادئها على أرض الواقع، فقد حضنا النص القرآني على التأسي والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم المبعوث رحمة للعالمين.وجعل من التربية بالقدوة أسلوبا فعالا لترجمة الحقيقة الإسلامية،وشحذ العقول والأرواح بذوات تُمكنهم من التشرب الصحيح لأحكامه وتوجيهاته. فالمنهج، برأي الأستاذ **محمد قطب**، مهما اتسم بالإحاطة والبراعة والشمول يظل حبرا على ورق، يظل معلقا في الفضاء مالم يتحول إلى حقيقة واقعة تتحرك في واقع الأرض؛ ما لم يتحول إلى بشر يترجم بسلوكه وتصرفاته ومشاعره وأفكاره مبادئ المنهج ومعانيه. عندئذ فقط يتحول المنهج إلى حقيقة، يتحول إلى حركة، يتحول إلى تاريخ [٣].

---

[٣] محمد قطب: منهج التربية الإسلامية ج١. دار الشروق. القاهرة ١٩٩٣. ص ١٨٠

لذا توفر السيرة النبوية اليوم بشخوصها وأحداثها فضاء خصبا لاستلهام الدروس وتجديد الصلة بجوهر الدين ومنابعه الثرة.

ومادام الحديث هنا متصلا باليوم العالمي للمرأة، وباستعراض المنجزات الحقوقية التي تسهم في تحسين ولوجها للحياة العامة وإشراكها في مسلسل النهضة والتنمية، فلا بأس من إطلالة سريعة على نموذج مشرق وسم بدايات الدعوة المحمدية بميسم خاص، وأثبت أن دور المرأة في صنع الأحداث الكبرى والتحولات الإنسانية العميقة لا يقل في شيء عن دور الرجل.إنها **خديجة بنت خويلد** رضي الله عنها، أم المؤمنين وسيدة نساء العالمين.

لماذا خديجة بنت خويلد؟

لأن الإطار الذي يتم من خلاله استعراض أحداث السيرة، سواء تعلق الأمر بالمناهج التعليمية أو المنابر الإعلامية المختلفة، يُخلف في الأذهان صورة مشوشة ومفككة قوامها: سيدة ثرية في الأربعين تُعجب بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وأمانته، فتتزوج به وتنجب منه بنين و بنات، ثم تؤازره في بداية دعوته حتى تلقى بارئها!إن صورة بهذا الاختزال لا يمكن أن تحفز الرغبة بالاقتداء،

فغاية ما تبلغه أن تستقر في الوجدان كحقيقة صوفية منعزلة عن واقع الحياة!

ثانيا لأن المرويات والأخبار التي تمدنا بها كتب السيرة والمصادر التاريخية عن حياة خديجة رضي الله عنها، لا تشفع للكتابة الإسلامية المعاصرة كسلها عن السبر الجاد لأغوار هذه الشخصية، والقراءة المتجددة للأحداث والوقائع بشكل يثري الزاد الدعوي، ويعيد النظر في الدور الخطير الذي لعبته السيدة خديجة رضي الله عنها من زوايا متعددة.

أول ما يسترعي الانتباه في سيرة القرشية الطاهرة أن وضع المرأة في شبه الجزيرة العربية لم يكن بالسوء الذي انزلقت إلى وصفه بعض الأقلام، ففي أخبار العرب وقصصهم ما يحيل على مقام كريم للمرأة أهلها لإبداء الرأي في الشؤون العامة، والتدخل لنزع فتيل الأزمات. وحسبك في هذا الباب موقف زوجة الحارث بن عوف المري لما هَم بالدخول بها فقالت: أتتفرغ للنساء والعرب يقتل بعضهم بعضا؟- تقصد حرب بني عبس و بني ذبيان- قال: **وبماذا تشيرين؟** قالت:اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ثم ارجع إلي؛ فعرض الأمر على خارجة بن سنان فاستحسن ذلك، ونهض كلاهما بهذا الأمر حتى تم الصلح،ودُفعت الديات. لا ننكر طبعا

وجود بعض الحمقى ممن أهانوا النساء ووأدوا البنات خشية الفقر أو العار، لكنها حوادث فردية لا تجيز التعميم المُخل.

الأمر الثاني: موقفها حين أنبأها الرسول صلى الله عليه وسلم بخبر الوحي وأردف قائلا: " لقد خشيت على نفسي" فقالت: **"كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم،وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة"**.

هل هو مشهد يحيل فحسب على زوجة تهدئ من روع زوجها، أو تخفف من وقع روائع الجلال التي هزت كيانه في غار حراء؟

لا! إننا أمام سيدة حباها الله من صفات الفطنة وبعد النظر وسلامة الفكر ما هيأها لاستقبال نبأ عظيم.فلم تظهر الهلع أو الاستنكار، ولم تبادر بإثارة الشكوك أو صوغ الاحتمالات، و إنما أعلنت أن الخط الفاصل بين أخلاق محمد التي تشكل "المثال" وأخلاق المجتمع القرشي لن يأت إلا بخير. إن هذه الشهادة في حق زوج كمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم دليل على البون الشاسع بين سيرته الشريفة، وحياة غيره من العظماء الذين احتفت بهم الإنسانية. فكثير منهم عجزوا عن انتزاع ثقة زوجاتهم أوالحظوة بشهادة كشهادة

خديجة رضي الله عنها، بل إن منهم من لم تتورع زوجته عن فضح طويته وسوء أخلاقه في مذكرات شخصية وعلى صفحات الجرائد!

الملفت للنظر كذلك في هذه الكلمات الوجيزة المنتقاة , أنها تؤلف استدلالا عقليا و قياسا من أبدع الأقيسة و أجملها.يقول السيد **عبد الحميد الزهراوي** في مؤلفه القيم (خديجة أم المؤمنين):" يخرج المتأمل في حديث هذه السيدة بأن النوع الإنساني محل لعظيم تجليات رب الأنواع كلها.ولذلك يحب كل ما يؤدي إلى تسامي هذا النوع ويخلق الأسباب لذلك و يأخذ بيدها لتتغلب على ما أظهره بحكمته التي لا نعلمها من أضدادها.

و يخرج من كلامها بأن الله عز و جل مطلع على أعمالنا ومجاز عليها، وأنه يحب منا أعمالا و يكره أخرى، وأن الذي يحبه منا على حسب تفكيرها هو الاستقامة ومساعدة بعضنا لبعض، ولا سيما مساعدة الضعفاء.

ويخرج منه أن من يفعل الخير لا يأتيه إلا الخير. والخير الذي نعبر عنه بهذا اللفظ قد جاء في عبارة السيدة بتفصيل أعمال كلها من باب مساعدة الإنسان للإنسان، فهذه المساعدة في نظرها كل خير أوهي

الخير؛ فهل يكافئ الله فاعل الخير بغير الخير؟ إن هذا على حسب تفكيرها لا يمكن أن يحدث.

ونتيجة قياسها أن هذه رسالة ربانية فيها الخير لا الضير، وأن الله عز وجل سيتفضل بتأييد المأمور في حمل هذه الأمانة على ثقلها وصعوبة تأديتها لقوم ينكرونها ولا يعرفونها " [٤]

الأمر الثالث:أنها كانت سيدة مجتمع تتحدد فيه مكانة الفرد بالنظر إلى حجم نشاطه التجاري ،و تحتكم شبكة علاقاته الاجتماعية للعامل الاقتصادي. لكن لم يُؤثر عنها ما يدل على إيلائها أي اعتبار لهذه المكانة أو لذاك الثراء، وهي تواجه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تبعات الدعوة في أخطر مراحلها. فقد كفته هم المعيشة حين انصرف للتحنث في غار حراء، وآثرت حصار الشِعب معه تاركة ثروتها بين يدي المشركين.إنه موقف لم تحكمه التبعية الزوجية بقدر ما يحكمه الاقتناع بأنها رسالة تستحق البذل وصبر الأكرمين!

وفي شِعب بني هاشم يبلغ الحصار حدا رثاه الخصوم، لكن خديجة رضي الله عنها أبت إلا أن تشارك زوجها مغرم الجهاد المُر،

٤السيد عبد الحميد الزهراوي: خديجة أم المؤمنين. دار الهلال. القاهرة ١٩٦٢. ص ١٨٧-١٨٨

وتبرهن لمن حولها ومن بعدها أن المرأة يومها كالرجل؛ جزء من النواة الصلبة التي حملت عبء الرسالة في أخطر مراحلها.

إن الدعوة إلى بحث متجدد في ثنايا السيرة النبوية عن الحضور الفاعل للمرأة،يُسهم و لاشك في تخليق صيغ التدافع التي يُتوخى منها اليوم تثبيت حقوق هُمشت، والتخلص من عوائد وأعراف تنحاز لذكورة جائرة. وبغير هذا التخليق فإننا سنضل الطريق، يقول **عباس محمود العقاد،** فيركب كل من الجنسين رأسه في اللجاجة والشحناء:حقي وحقك، وكفايتي و كفايتك، وسلاحي وسلاحك، وانتصاري وهزيمتك، على النحو الذي سبقنا إليه الغرب القديم والحديث غير محسود على سبقه!(٥)

٥عباس محمود العقاد: المرأة في القرآن. المكتبة العصرية. بيروت د.ت. ص ١٣٧

اِلْزم غَـرزه!

لما أبدى عمر بن الخطاب رضي الله عنه احتجاجه على صلح الحديبية، ورأى فيه دنية تُعطى لأهل الشرك أجابه أبو بكر رضي الله عنه بعبارة تلخص معنى الاتباع الحق:" الزم غرزه- أي أمره ونهيه-،فإني أشهد أنه رسول الله، وأن الحق ما أمر به، ولن يخالف أمر الله، ولن يضيعه الله". وما أحوج شبابنا اليوم في متاهة الشبهات والتلفيقات والتأويل الفاسد لنصوص مجتزأة من سياقها، إلى إدراك هذا المعطى الجليل، والوقوف على صور أخرى للاتباع غير التي يحفل بها اليوم خطاب ناعم انتقائي!

إن حركة الحياة حين تكون منسابة هادئة كجدول ماء، فإن النفس تجد في بعض كلام الحكماء وتصرفاتهم ما يغريها بالاقتداء به وتمثله، ولو على نطاق ضيق. حتى أن الحديث عن القيم الإنسانية، أو السلوك الحسن، أو التفاعل الإيجابي مع الغير لا يحقق الأثر المطلوب إلا إذا استحضر نموذجا تطبيقيا، تشعر النفس بالميل إلى محاكاته. لكن حين يجد الإنسان نفسه أمام مواقف حرجة، أو في خضم معارك أو أزمات أو حتى دوائر قلق متتالية، فإن كل النماذج تنهار أو تتوارى لتصبح الغرائز وحدها سيدة الموقف! من هنا نفهم

سر الجمع بين التوحيد والاتباع في الشهادتين كركن أول من أركان الإسلام، إذ لا يستقيم في عقل لبيب أن يُترك المنتسب للدين وحيدا في معترك الحياة، دون أن يسترشد بنموذج مضيء تستوعب سيرته حقائق ذاك الدين ومبادئه. لذا كان الإقرار بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم دون تحقيق شرط الاتباع الحق انحرافا عن المسار، لا تزال الأمة حتى اليوم تعاين آثاره السلبية في كافة المجالات، بدءا بمنظومة القيم، ووصولا إلى السيادة وحرية صنع القرار.

لا يقف الاتباع الحق عند حدود محاكاة النبي صلى الله عليه وسلم في المأكل والملبس، أو المعاملة اليومية مع الزوجة والصاحب والجار، بل يمتد إلى المواقف الحرجة التي قد ينطفئ فيها سراج العقل، أو يهتز أمامها بنيان القيم. فلا يتحقق شرط الاتباع إلا حين تكون النفس خائفة مضطربة، أو هائجة تدير دفتها فورة الغضب. ولنلق نظرة على مواقف من السيرة النبوية لتدعيم صواب هذا الطرح:

حين عزمت قريش على قتل **زيد بن الدثنة** رضي الله عنه في مأساة الرجيع الشهيرة، قال له أبو سفيان: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمدا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ فقال:لا والله، ما يسرني أني في أهلي، وأن محمدا في مكانه الذي هو فيه

تصيبه شوكة تؤذيه. فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا.

عديدة هي مرويات التضحية والفداء التي تكشف عن أنبل مشاعر الحب، والرغبة في مكافأة الصنيع ببذل الروح، لكن مقالة زيد رضي الله عنه تحيل على معنى آخر للتضحية، لا تتطلع من خلاله النفس إلى تمجيد فعلها وتخليده في قائمة الأبطال، كما هو الشأن في الملاحم و الأساطير القديمة، ولا تطمح إلى رد الجميل بأسلوب أبلغ في النبل، وإنما هو تجل صادق لقوة اليقين بأن رسالة السماء التي أحيت القلوب الميتة،وأنقذت الإنسانية من الشقاء، تستلزم صون حاملها ومبلغها صلى الله عليه وسلم من كل أذى يلحقه أو سوء يصيبه،حتى لو تعلق الأمر بشوكة.إن الاتباع الحق ينشأ عن المحبة الصادقة، تلك هي القاعدة التربوية التي تغيب اليوم للأسف عن بعض دعاة إحياء السنة النبوية، وتلقين الأذكار وعمل اليوم و الليلة!

و الاتباع الحق يقتضي كذلك تغليب السنة على ما ينافيها من عادات اجتماعية، و تمثلات سائدة موروثة. إلا أن مجتمعاتنا لا تخلو اليوم من انتقائية ملحوظة في التعامل مع السنن والآداب النبوية، إذ يكفي

أن يستعرض المرء التمثل السائد حول العلاقة الزوجية ليقيس حجم التباين المؤلم بين العادة المستحكمة، والهدي النبوي المعطل!

روى البخاري في صحيحه عن إبراهيم عن الأسود قال: سألت عائشة رضي الله عنها ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في أهله، قالت: كان في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة (٥٦٩٢).وفي رواية لأحمد: سئلت عائشة رضي الله عنها:ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل في بيته، فقالت: كان بشرا من البشر، يفلي ثوبه،و يحلب شاته،ويخدم نفسه.(٢٦١٩٤)

فهل ترى اليوم شيئا من هذا في سلوك حتى بعض من يتحرون سننه صلى الله عليه وسلم؟ لقد تربت أجيال بكاملها على تمثل خاطئ لمفهوم الرجولة والقوامة،وتوزيع غير عادل للمهام داخل الأسرة المسلمة. نعم، نشأ بيننا من يرى في التدبير المنزلي، وشؤون الطبخ و الكنس و الغسل انتقاصا من رجولته، وقدرا محتوما لا يفارق الزوجة والأم والبنت حتى اللحد. فلا يخجل المسلم اليوم من إظهار عجزه عن سلق بيضة أو كي قميص، لأن الرجولة تحتم عليه أن يقضي سحابة يومه في ارتياد المقاهي والأماكن العامة، وأما حظه من الأعباء البيت فلا يعدو ملء البطن وشتم العيال!

من البديهي إذن أن يصادف التحريض الإعلامي هوى في نفس المرأة، فتقرر بدورها إلقاء العبء على الخادمة أو مؤسسات الرعاية البديلة لتنعم بحظها من الحياة.

و المسلم ملزم، بمقتضى الإتباع الحق دائما، أن يستحضر الهدي النبوي في الزواج وشروطه وآدابه ومتطلباته، فلا يُقحم في هذه الرابطة السامية ما يفسدها من الأهواء و التقاليد و العادات الجافة والمنكرة. لهذا نجد الحرص النبوي الشديد على تمتين آصرة الزواج ماثلا في عدد من الأحاديث، بدءا من تصحيح المعايير ووصولا إلى التنبيه لأدق التفاصيل اليومية التي إن أهملت ستؤثر سلبا على عش الزوجية.

في الحديث الذي رواه البخاري عن سهل قال: مر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "ما تقولون في هذا؟" قالوا:حري إن خطب أن يُنكح، وإن شفع أن يُشفع، وإن قال أن يُستمع. ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: "ما تقولون في هذا؟" قالوا: حري إن خطب أن لا يُنكح، وإن شفع أن لا يُشفع، وإن قال ألا يُستمع.فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا خير من ملء الأرض مثل هذا " (٥٠٩١). إن هذا التوجيه لا يروم الإشادة بالفقر على حساب الغنى، بقدر ما ينبه إلى البون الشاسع

بين الرؤية المنغلقة للعلاقات الإنسانية داخل المجتمع، والرؤية المنفتحة التي يطمح إلى بلوغها الإسلام من خلال تمجيد الكفاءة الدينية والخلقية، وهو الأمر الذي نص عليه صراحة في حديث آخر:" إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير". وما نعاينه اليوم من تفش للعنوسة، وعزوف الشباب عن الزواج بسبب الظرفية الاقتصادية والاجتماعية، والخطاب الإعلامي المناهض لثقافتنا وقيمنا، ليس سوى تجل مؤلم لمعايير المجتمع التي رفعت سقف توقعات كل طرف تجاه الآخر فيما يتعلق تحديدا بالحقوق الزوجية والمسؤولية داخل الأسرة.

إن الاتباع الحق للسنة النبوية باعتبارها مصدرا ثانيا للتشريع لا يعني إلغاء دور العقل المسلم في الاجتهاد، وإبداع الحلول المناسبة لمشكلات الحياة المتجددة و المتغيرة. بل هو حث على تثوير الفهم، وإنجاز قراءة متجددة تمنح المسلم المعاصر نافذة مفتوحة على الرسول صلى الله عليه وسلم، يسترشد من خلالها بنوره، ويصوب مساره، ويحيا بمقتضى تعاليم تضمن له السعادة و اليمن و البركة.

إنك لن تجد في قائمة العظماء من سجد بين يدي الخلق سبحانه مرددا:" أمتي.. أمتي" غير المبعوث رحمة للعالمين.. فالزم غرزه!

أذى الجيران

خلال أعمال الشغب التي شهدتها لوس أنجليس الأمريكية سنة ١٩٩٣، انبرى خمسة مواطنين لحماية سائق شاحنة، بعد أن رأوا على شاشة التلفاز نقلا مباشرا لمحاولة الاعتداء عليه من لدن مجموعة من الغوغاء القساة. وردا على سؤال من المدعي العام حول دفاعهم عن رجل لم يقابلوه قط مسبقا قال أحدهم: شعرت وكأنهم يضربونني أنا!

إن عبارة "شعرت وكأنهم يضربونني أنا" تلخص جوهر العلاقة الإنسانية التي تسمو على لحمة الدم والعرق والنسب. لذا فبلوغ مرتبة الإنسان يتطلب تمرينا شاقا وطويلا، تتحرر فيه النفس من قبضة أنانيتها حتى تبصر الآخر بمنظور مختلف، وتدرك أن قوام العيش المشترك يكمن في حسن الجوار، ونكران الذات أمام حقوق الغير.

من هذا المنطلق أرسى الإسلام منظومة متفردة من الحقوق والآداب المتعلقة بالجوار، وشدد أمين الوحي على مكانة الجار حتى ظن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سيُوَرثه. كما تضافرت

النصوص العديدة لتجعل من الجار نافذتك على العالم، فالذي يحسن معاملة أربعين جارا من كل جانب لا شك أن هالة وده ومحبته ستمتد لتشمل العالم بأسره، لذا كان من فقه بعض المفسرين أن اعتبروا الجار هو كل ما يليك من نفس بشرية!

ورث المسلمون عن جاهليتهم رعاية الجوار ولو ببذل النفس والمال والولد، فقدمت المكتبة الإسلامية نماذج قيمة لمدى احترام الإنسان العربي للجار، ولزومه مقتضيات العرف و العادة، حتى في خضم الصراع والأزمات. وكل قارئ للسيرة النبوية تستوقفه تلبية المطعم بن عدي، وهو مشرك، لطلب النبي صلى الله عليه وسلم الدخول في جواره، وكيف أنه دعا بنيه وقومه قائلا: البسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت؛ فإني أجرت محمدا. ثم توجه إلى ساحة البيت الحرام وقام على راحلته فنادى: " يا معشر قريش، إني أجرت محمدا فلا يَهِجْه أحد منكم."

ومن طريف مأثورهم عن الجوار أن مدلج بن سويد الطائي كان يرى في الجراد إذا نزل حول خبائه، جارا تلزم رعايته، فاشتهر بمنع الناس من صيده حتى يطير بعيدا عنه!

كان من مقاصد الرسالة المحمدية تتميم مكارم الأخلاق ومحاسنها، فارتفع سقف الجوار فوق غاية الحَمِية والفخر وتأكيد المكانة. ولا يكاد مصنف في الفقه أو الحديث يخلو من قائمة الآيات والأحاديث التي توطد مكانة الجار في خارطة اهتمامات المسلم اليومية، وتحث على رعايته وتكريمه واحتمال أذاه.

يكشف التصور الإسلامي للجوار عن مفاتيح تنتظم من خلالها علاقة المسلم بجيرانه؛ وهي التي عبر عنها **أبو الليث السمرقندي** في (**تنبيه الغافلين**) بقوله: تمام حسن الجوار في أربعة أشياء:

أولها: أن يواسيه بما عنده.

والثاني: ألا يطمع فيما عنده.

والثالث: أن يمنع أذاه عنه.

والرابع: أن يصبر على أذاه.

وفي التوجيهين الثالث والرابع تتركز خصوصية الطرح الإسلامي الداعي إلى **احتمال الأذى**، كمقوم جوهري لتثبيت العلاقة، خاصة داخل محيط تتجاور فيه العقائد والمذاهب المختلفة. وفي السيرة النبوية يستعرض القارئ مواقف للنبي صلى الله عليه وسلم مع

جيرانه المشركين في مكة واليهود بعد الهجرة، تعكس وفاءه لتلك الرابطة المكانية بالصبر على الأذى، ومقابلة السيئة بالحسنة.

وبما أن قدرات الناس تختلف، وكذلك سعة صدورهم، فقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى حل عملي يتحقق من خلاله تأديب جار السوء، حيث يحمل المتضرر متاعه ويطرحه في الطريق، وبذلك تتحقق الإدانة الجماعية التي تضغط على البادئ بالظلم حتى يرعوي ويكف أذاه.

أدرك الرعيل الأول من المسلمين أهمية الجوار في خلق ترابط مكاني يمتد ليشمل المجتمع برمته، فكان الحرص على الجار الصالح مسلكا لا يحيد عنه إلا المضطر أو خفيف العقل. ومن الحكايات المأثورة في هذا الباب أن أبا الجهم العدوي كان جارا **لسعيد بن العاص**، واضطر يوما لبيع داره بمئة ألف درهم، فلما أحضرها المشتري قال أبو الجهم: هذا ثمن الدار، فأعطني ثمن الجوار! قال الرجل مندهشا:أي جوار؟ قال: جوار **سعيد بن العاص**. قال: وهل اشترى أحد جوارا قط؟ رد أبو الجهم: رُد علي داري وخذ مالك. لا أدع جوار رجل إن قعدت سأل عني، وإن رآني رحب بي، وإن غبت عنه حفظني، وإن شهدت عنده قرّبني، وإن سألته قضى حاجتي، وإن لم اسأله بدأني، وإن نابتني نائبة فرّج عني..

فلما بلغ الخبر **سعيدا** أرسل مئة ألف إلى جاره وقال:هذا ثمن دارك، والدار لك!

إن جار السوء من أعظم الابتلاءات التي تمتحن صبر المسلم في حياته اليومية. روي عن **لقمان الحكيم** قوله: يا بني، حملت الحجارة والحديد فلم أر أثقل من جار السوء!غير أن الحفاظ على شبكة العلاقات الاجتماعية يفرض على المسلم أن يضحي بشيء من "أناه" الخاصة في سبيل الإبقاء على اللُحمة، والتماس الأجر في خلق الصبر والعفو وإيجاد الأعذار التي تُخمد جذوة المشاكل. إنه المقصد الذي استوعبه الإمام **الحسن البصري** فقال قولته الشهيرة: ليس حسن الجوار كف الأذى، وإنما حسن الجوار الصبر على الأذى.

انفرط العقد في مجتمعنا المعاصر حتى صار الجيران يطرقون أبواب المحاكم لأتفه الأسباب..

وضج الناس بالشكوى من التفاعل السلبي يوميا مع جيرانهم، فمنهم من اعتزل الحي أو البلدة بلا رجعة، ومنهم من أرداه الغضب قتيلا، أو جريحا، أو سجينا..

وقد تفضي خصومة عابرة بين الصبيان إلى قطيعة أبدية بين الكبار، فيتحول المبنى السكني إلى ثلاجة تتجمد داخلها أواصر المحبة والود، والمشاركة في السراء والضراء.

هي آلاف القصص المؤلمة التي تلتمس فقها متجددا ينصت لنبض المجتمع، ويبذل وسعه لتبديد سحب الأنانية التي أرخت بظلالها على علاقة الجوار، ولسان حالها يقول: كومة أحجار خير من هذا الجار!

ابن امرأة تأكل القديد

يسارع أناس فور تألقهم والتماع ذكرهم إلى الشروع في رحلة انفصال عن ماضيهم بتغيير الملامح والأسماء، والتنكر للأمهات والآباء، وصولا إلى استبدال الوطن ذاته بجنسية أخرى ينكشف أمرها في الأزمات!إن وضعية (النجوم) في وطننا العربي اليوم مثيرة للشفقة، خصوصا بعد أن أصبحت مواقع التواصل الاجتماعي مؤثرة بشكل كبير في تحديد شعبية هذا النجم أو ذاك، وقياس حجم تألقه والمسافة التي تفصله عن منافسه. ومن طريف ما تفتقت عنه قريحة أحدهم في هذا الباب دفع مبلغ مالي كبير لإضافة آلاف المعجبين الوهميين إلى صفحته على الفايسبوك!

كيف يمكن للشهرة والنجومية أن تسلب المرء ذاته،و تحضه على قطع الشرايين التي تغذي وجوده بأسباب البقاء؟

وهل بلغت المؤسسة الإعلامية ورديفتها الإعلانية هذا الحد المفجع من التلاعب بالعقول، وطرح عالم (الأستوديو) بديلا لنبض الحياة اليومية في الأزقة والحارات؟

ولماذا يحرص بعض هؤلاء النجوم على الانخراط في مسعى خطير لتجريد الأمة من قيمها الأصيلة، واستبدالها بأخرى شوهاء تمعن في تفتيت الهوية،وفصل حاضر المسلم المعاصر عن ماضيه و ثوابته؟

شكلت أحداث ما سمي بالربيع العربي مناسبة لرصد حجم الإفلاس الذي بلغته النجومية الزائفة في سماء الفن وملاعب الرياضة ودوائر السياسة. وتوالت التصريحات والمواقف المعلنة التي تحيل على استعداد مؤسف للقطع مع كل القيم وتجليات النبل الإنساني إن أسفر عن الولاء لها تراجع في الحظوة لدى القائمين على وسائط الإعلام والاتصال.وفي المقابل تابعنا،ضمن حالات خاصة، كيف تعرض بعض النجوم لقصف إعلامي خطير إثر انحيازهم لقضية إنسانية أو موقف أخلاقي.وبالنظر إلى حجم التأثير الهائل الذي تمارسه وسائل الاتصال الحديثة على الجيل الناشئ، فإننا بحاجة اليوم إلى رصد الآثار الجانبية للنجومية كصناعة إعلامية مؤثرة على البناء القيمي للمجتمع.

لا شك أن التحول الجذري الذي طرأ على الإعلام،سواء من حيث هيكله أو مضامينه، قد أسهم في فصل النجومية عن إطارها القيمي،خاصة بعد أن تنبهت مراكز الهيمنة المالية والاقتصادية إلى

دور الإعلام المحوري في إعادة تشكيل الأذواق والتصورات والمواقف على نحو يخدم مراميها وأغراضها. فلم تعد النجومية والشهرة وثيقة الصلة بالتميز والتفرد، والجهد الاستثنائي المبذول في حقل معرفي أو فني، بقدر ما أصبحت نتاج آلة دعائية ضخمة تصنع من أي فرد مغمور نجما ساطعا خلال فترة وجيزة، وعبر تقنيات وأساليب محكمة تجعل من الوجه والجسد إنجازا في حد ذاته لا يضاهيه أي إنجاز آخر!إنها نجومية لا تنطوي على أي بعد قيمي أو دلالة ثقافية، بقدر ما تحيل على نزعة تجارية وتسليع كامل للذات الإنسانية. أما تداعياتها الأخلاقية فهي اليوم مثار شكوى وتذمر حتى في المجتمعات التي يُفترض تحررها النسبي من منظومة القيم. يقول الدكتور **محمد حسام الدين إسماعيل** في معرض تحليله لظاهرة نجومية العارضات "ويبقى – شئنا أم أبينا – أن تلك العارضات النجمات هن مثل يحتذى لشرائح لا يستهان بها من الفتيات، ليس فقط في العالم الغربي ولكن على نطاق كوكبي، فإذا كان نجوم الفكر والعلم يحترمون ويقدرون لإنجازاتهم الفكرية, ونجوم الرياضة يملكون من المواهب ما يستحق التقدير في نظر جماهير المعجبين، فإن العارضات يجري الهيام بهن فقط لصورهن. فليس هناك لمحة أخلاقية أو فعل طيب أو موهبة خاصة

يمثلنها. وهذه هي الخطورة على الفتيات، فمحاولة التمثل بهاتيك العارضات فقط قد يتمخض عنها عواقب نفسية وجسدية سلبية "[٦].

ويبلغ ضرر النجومية أشده في ظل سطوة غير مسبوقة لوسائل الإعلام،وعجز منظومتنا التربوية عن تحقيق المعادلة الحضارية،ممثلة في استيعاب المتغيرات التي يشهدها المجتمع الإنساني المعاصر، دون تعريض القيم الدينية والخلقية والضوابط الاجتماعية للاهتزاز. وما نعاينه داخل أسرنا وخلف أسوار مدارسنا يحيل،مع كامل الأسف، على وضع تربوي مقلق تخطى فيه النجوم حدود الفرجة،كي يلبوا حاجة الصغار إلى قدوة تُحتذى ونموذج يُحاكى!

أما التصور الإسلامي للشهرة والنجومية فيقوم على تهذيب الميل إلى التفرد والتميز، حتى لا يقع المسلم في جملة من المحاذير التي قد تعصف بكيانه وتحبط عمله, كالعجب والرياء والغرور والتماس الجاه عند الناس. ومعلوم أن الطريق إلى الشهرة حتى وإن تحققت فيه النية الصادقة والوسائل المشروعة، يظل محفوفا بآفات ومطبات تنحرف بالقصد النبيل عن مساره لتبرز آثار التطلع للمال

٦د. محمود حسام الدين إسماعيل: الصورة والجسد.دراسات نقدية في الإعلام المعاصر. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت ٢٠٠٨.ص ١٨٦

والجاه والسلطة. لذا لم يُخف السلف الصالح كراهيته للشهرة والنجومية، وحرصه على أن يستن بالهدي النبوي في تربية النفس و مجاهدتها.

روى ابن ماجة في سننه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل يكلمه فأرعد، فقال: هون عليك فلست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد. هذا الموقف النبوي يلخص كل قول في النجومية يستشرف ما وراء متاع زائل،فالنبي الكريم الذي حظي بالاصطفاء وشرف الرسالة يأبى هنا أن ينفصل عن واقعه الاجتماعي، أو يمنح التميز والتفرد دواعي الاستعلاء وانسلاخ الذات عن ماضيها وبيئتها، إذ يجدر بالمسلم الذي استوعب حقيقة الوجود الإنساني أن يتطلع لآفاق أرحب تتحقق فيها معاني العبودية والمبادرة إلى الخيرات. وتأمل كيف أنه صلى الله عليه وسلم أحال هذا الأعرابي على ثلاث حقائق في بضع كلمات يطمئن بها فؤاده وتهدأ نفسه من أثر المهابة:

حقيقة أنه ابن امرأة وفي ذلك تأكيد لبشريته.

و حقيقة أنه من قريش، وفي ذلك تأكيد لنسبه وانتمائه القبلي مما يزيد من طمأنينة الرجل.

ثم حقيقة أنها امرأة كانت تأكل القديد، وفي ذلك إحالة على المستوى الاجتماعي الذي تتقاسمه غالبية العرب آنذاك!

التقط الصحابة رضوان الله عليهم من هذا الموقف وغيره من التوجيهات النبوية إشارات دالة، تستحث النفس لطلب النعيم المقيم لا المجد الزائل. فكان لهم موقف حاسم من الشهرة والنجومية وما يترتب عنهما من محاذير، فنجد ابن مسعود رضي الله عنه ينهى الناس عن السير خلفه كأنه في موكب قائلا:ارجعوا فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع.

ويصعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه المنبر فيحمد الله ويثني عليه ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يقول: أيها الناس، لقد رأيتني أرعى على خالات لي من بني مخزوم فيقبضن لي القبضة من التمر والزبيب فأظل اليوم وأي يوم! ويعاتبه عبد الرحمن بن عوف لأنه قصر بنفسه فيرد قائلا: ويحك يا ابن عوف إني خلوت فحدثتني نفسي فقالت: أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك، فأحببت أن أعرفها نفسها!

و يكتب إلى سعد بن أبي وقاص محذرا من الشهرة الزائفة:"وإياك أن تكون ممن يتابع السبل المعوجة طلبا لشهرة الندامة والحسرة،

فتبيع دينك بدنيا غيرك ويغرك بالله الغرور، وتكون قد أخذتها من حرام ووضعتها في حرام، وتمتلئ نفسك بعد ذلك غرورا وكبرا ورياء وعجبا ".

و ينشأ جيل ينشر الدعوة في الآفاق وتتوالى على يديه الفتوحات، وتأتيه الدنيا صاغرة فلا تغره المكاسب والشهرة وذيوع الصيت، بل يجتهد في اقتفاء خطى نبي يلهم الإنسانية كلها سبيل العظمة والنجومية الحقة، ويسمو بالتواضع وخفض الجناح إلى أعلى مراتب السؤدد والمجد.

إننا نعايش يوميا تجليات نجومية "وقحة "، لا تخفي تحاملها على قيم المجتمع وهويته، وتبدي استعدادا غير مسبوق لتوظيف النجاح الجماهيري في التأليب والتحريض وتغذية أسباب الفرقة والخصام. وما لم تتضافر الجهود للحد من تأثيرات الإعلام الجديد، عبر استعادة مبادئ الهدي الإسلامي في هذا الصدد، فإن صيانة الهوية والقيم والثوابت ستصبح رهانا عسير المنال!

البلايا تحن إلى اللبيب

يتولد عن البلايا التي تفجأ المسلم اللبيب في مسيرة حياته ثمرتان هما: الصبر و الرضا. أما الصبر فلعلمه بأن قضاء الله لا راد له، وأن الحق سبحانه هو وحده القادر على أن يرفع عنه البلاء، ويعيد لحياته الطمأنينة والسكينة فيصبر.وأما الرضا فليقينه بأن الله تعالى هو أرحم الراحمين، وأن في طيات المحنة نعمة وثوابا وحكمة، فيقابل البلية بارتياح ضمير، ويسأل ربه أن يرزقه البصيرة كي يتلمس تجليات حكمته سبحانه فيما قدره على عبده من محن ونوائب.

فما بال شبابنا اليوم يدفع بحيرته و تساؤلاته إلى حد الاعتراض على البلاء بزعم أن أهل المعصية أولى به، وأن من آمن و أطاع (يجب) أن يعيش في نعيم ورغد دون أن تعترض حياته نكبات، أو تعتري سماء وجوده غيوم واضطرابات؟ أهو منسوب التربية الإيمانية الذي بات يشهد انخفاضا ملموسا على مستوى الفكر والسلوك؟ أم هي القيم التي تتذبذب ناشئتنا بين الولاء لها واستبدالها بأخرى تتلاءم مع متطلبات العصر؟

لا شك أن الأسرة ببعض تمثلاتها الخاطئة، والإعلام بمقولاته و أدواته المجلوبة من ثقافة أخرى قد أسهما في حدوث التباس لدى المسلم المعاصر بشأن علاقة الأسباب بالمسبب، إذ بات البلاء في عرفه ثمرة معصية أو ظلم واعتداء على الآخر، وبالتالي لا يليق بمن تجنبهما أن يكون محل ابتلاء. هذا الفهم الذي لا يستقيم مع ما تقرره الآيات القرآنية و السنة النبوية يحتاج إلى مراجعة متأنية تعيد لفقه الابتلاء اعتباره في وجدان المسلم وفكره وسلوكه، خاصة وأن الجيل الناشئ لا يخفي عجزه عن تبين الحكمة من صور البلاء المتعددة التي يضج بها واقع العالم الإسلامي اليوم، وهل يتعلق الأمر بتمحيص واختبار لرفع الدرجات، أم بعقوبة عاجلة على ما أحدثه الفرد من فساد وانحراف قيمي؟!

تُنسب **للفضيل بن عياض** قولة طريفة تحيل على ما ينبغي أن يتمتع به المسلم من قراءة موضوعية للمُلمات التي تربك سير حياته اليومية. يقول الفضيل: "إني لأعصي الله فأعرف ذلك من خلق خادمي وحماري" أي أنه يستشعر مخالفته للمنهج في تجليات وأفعال قد لا يعيرها الآخرون اهتماما من قبيل تلكؤ خادمه وعصيانه، أو عناد حماره! هذه الدقائق والتفاصيل التي لا نلقي بالا لأسبابها، كانت عند الفضيل وأمثاله من الصالحين مدعاة للتساؤل

حول سر حدوثها، ومقدمات أو إشارات يجدر التنبه لها و التقاط الحكمة منها بما يدفع لمحاسبة النفس ومراجعة السلوك. كل ذاك الاستشعار والتنبه مرده إلى إلمام بفقه البلاء و الابتلاء، وإدراك أن لكل ما يصدر عن المرء من أفعال، سيئة أو حسنة، ثمارا عاجلة وأخرى آجلة، والحازم من يسارع إلى التوبة والاستغفار قبل أن تثمر زلاته بلاء أدهى وأمر!

لكن ليس كل بلاء ثمرة لمعصية، بل إن منه ما يندرج ضمن لوازم اصطفاء أفراد مخصوصين للقيام بمهام النبوة، وأداء الرسالة وتبليغ دعوة التوحيد. وما من نبي أو رسول إلا وغدا الابتلاء قرين رحلته في مواجهة العقائد الفاسدة، والتصدي للانحراف الفكري والسلوكي في محيطه الاجتماعي، وضمن هذا السياق ورد الحديث الشريف" أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل".لذا فالبلايا في هذا المقام، مقام النبوة والاصطفاء، هي تشريف ورفع للدرجات، وتقديم النموذج المثالي الذي يقتدي به المسلم في مواجهته للشدائد.

ومن البلاء ما يندرج ضمن لوازم الاختبار والتمحيص الواجب قبل إثبات صفة الإيمان، وجدارة الانتساب إلى خير أمة أخرجت للناس. ومنه ذاك الذي لقيه الصحابة في صدر الإسلام، وما يتعرض له حتى اليوم كثير من العاملين في الحقل الإسلامي، قيادات وأتباعا،

وزمرا وأفرادا آمنوا بأن الفكرة الإسلامية يمكن أن تتجاوز حدود المنبر وحلقة الوعظ، لتسهم في تحسين الظروف الاجتماعية، وتحقيق العدل وضمان حقوق الإنسان. إنه بلاء لتثبيت الإيمان، ورفع الدرجات، وفصل الشوائب عن النسيج حفظا لتماسكه! يقول الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه (الصبر في القرآن) **"إنما كانت المحن ضرورة لأهل الإيمان لجملة معان وحكم نبه عليها القرآن، منها: تطهير الصف المؤمن من أدعياء الإيمان من المنافقين والذين في قلوبهم مرض. فإبان العافية والسراء يختلط الحابل بالنابل، والخبيث بالطيب، وإنما يقع التمييز بين الأصيل و الدخيل بالمحن و البلاء، كما يتميز الذهب الحقيقي من الزائف بالامتحان بالنار"**.

ومن البلاء ما ينطوي على مدلول تربوي وبُعد قيمي يحقق للشخصية المسلمة من التوازن و سمو النفس ما لا تدركه عبر صيغ التعبد المألوفة، كما يصقل معدنها و يحررها من آفات الغفلة و الركون إلى الدعة و الملذات. وفي آيات القرآن الكريم و الأحاديث الشريفة ما يُلمح إلى هذا المقصد:

يقول الله عز وجل مقررا المقصد الأسنى من سنة الابتلاء في المجتمع المسلم (و لنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال و الأنفس والثمرات. وبشر الصابرين) -البقرة ٥٣-

ويقول سبحانه (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كُتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم. والله عليم بذات الصدور) -آل عمران من الآية ١٥٤-

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من يُرد الله به خيرا يُصب منه".

وروى الترمذي بإسناد حسن صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما يزال البلاء بالمؤمن و المؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة ".

إن نزول البلاء بساحة المؤمن يحرره، كما أسلفت، من الجمود على حالة واحدة للتدين لا يفارقها، إذ يُحدث في النفس رجة تستحث صاحبها للتنقل بين وجوه التدين الأخرى التي قلما يلتفت إليها في حال العافية. فلولا البلاء ما تذوقت النفس معاني الصبر و الرضا و الاحتساب، ولا لهجت الألسنة بالدعاء الحار أو تضرعت للحق

سبحانه برفع الكرب و دفع المحنة. يقول **ابن الجوزي** في (صيد الخاطر) **"ليس المؤمن بالذي يؤدي فرائض العبادات صورة ويتجنب المحظورات فحسب. إنما المؤمن هو الكامل الإيمان، لا يختلج في قلبه اعتراض، ولا يُساكن نفسه فيما يجري وسوسة. وكلما اشتد البلاء عليه زاد إيمانه وقوي تسليمه..والإيمان القوي يبين أثره عند قوة البلاء"**.

وردت في ثنايا مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم ربه، إثر حادثة الطائف عبارة بليغة تتحات أمامها مظاهر السخط والتذمر التي تختلج في قلب المسلم، كما يتحات الورق اليابس. عبارة تخفف وقع البلايا وتضيء نبراس العقل ليحث صاحبه على رفع الخلل والاعتذار عن الزلل:

" إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي".. نعم، لأن البلاء المحض كما يقول **ابن الجوزي** ما يشغلك عنه، أما يقيمك بين يديه ففيه جمالك ورفعتك.

إن البلايا اليوم تحن إلى اللبيب الذي يستحضر هذه المعاني والدقائق، فيتلمس المنحة في طيات المحنة، ويستحضر لحظة البلاء أن الآمر بذلك هو أرحم الراحمين!

الحب في شريعتنا!

قصص الحب التركية والهندية ملأت الدنيا و شغلت الناس!

أينما وليت وجهك داهمتك تعبيرات الحب التي شلت اهتمام الناس وإرادتهم، وهان لأجل اتباعها الوقت والجهد والتفكير في ما هو أبعد بقليل من شجون القلب!

هل ما يحاصرنا اليوم هو الحب حقا أم هامش إلهاء جديد، يخدر العقول كي لا تنشغل بما حولها من أوجاع، و تتعطل حركة الحياة في مجتمعاتنا بفعل اللهاث خلف صراع الديكة في كل عمل درامي؟

لاشك أن لكل أمة تقاليدها الخاصة بالحب، وتعبيراتها المتفردة والخاضعة لطقوس ومثُل وقيم دينية وأخلاقية محددة. وما يجري اليوم من استهلاك درامي مفرط لقصص الحب، إنتاجا وإخراجا ومشاهدة، هو تذويب للاختلاف في بوتقة حب معولم، لا يستهدف في حقيقة الأمر سوى تحرير هذا الشعور من نبله وسموه ليُتخذ وسيلة لتفتيت منظومة القيم، وتحييد الإباحية لتصبح مشهدا اعتياديا على الشاشات وفوق الأرصفة. وقد كان حريا بكتاب السيناريو والمخرجين والمنتجين، ممن يزعمون السعي البريء لتحريك

المشاعر الإنسانية في عالم المادة الجلف الغليظ،أن يطلعوا على ما في خزانة الأمة من تقاليد حب امتزجت فيها المشاعر بمثالية خلقية قوامها الطهر والعفاف، واستوعبتها الرسالة المحمدية بمزيد من التهذيب والسمو،فتشكلت صورة عامة للحب تتسامى فوق الغرائز، وتوازن بحرص بين دفقات الشعور ومتطلبات عالم الحس والمادة!

شهدت البادية العربية قديما قصص حب ملهمة، وجديرة بأن تستعاد اليوم ضمن سياق تهذيبي يحفظ خصوصية المجتمع المسلم. قصص يتجلى فيها الحب الروحي الذي وإن كان يأخذ في الغالب منحى مأساويا حزينا، إلا أنه جسد مثالية بالغة السمو في صون المحبوب عن كل دنيئة أو إثم. طبعا لم يكن الحب العفيف هو التمظهر الوحيد للعلاقة بين رجل وامرأة، لكن بعض القصص التي خلدها التاريخ أسست لنموذج مثير في فضاء جاهلي لم يتوان عن استباحة جسد المرأة و تسليعه. ومن أقدم النماذج التي حفظها ديوان العرب: قصة عروة بن حزام الذي أحب ابنة عمه عفراء، وبذل وسعه لتتويج حبهما الطاهر بالزواج، لكن أسرة الفتاة غالت في المهر، فلم يجد عروة بدا من السعي خلف المال في كل مكان. وفور عودته تم إيهامه بأن عفراء ماتت، إلا أن خبر زواجها من أحد أغنياء الشام تناهى إلى سمعه،فرحل إليها، واحتال لرؤيتها ثم عاد مجددا إلى

قبيلته بني عذرة حرصا على سمعة محبوبته، وإكراما لزوجها الذي أحسن وفادته. وفي أرض الوطن هاجت العاطفة مجددا، ففزع إلى الشعر يبث في قوافيه آلامه و أشجانه قبل أن تسوء حاله،و يسلمه الوجد والأسى للموت. وما كاد نبأ وفاته يبلغ عفراء حتى أودى بها الجزع للحاق به!

إن أشعار عروة بن حزام جسدت قيما أخلاقية لم تحل العاطفة المتأججة دون الوفاء لها، ولم تفلح المنظومة المترهلة للجاهلية في إفسادها. نحن هنا أمام محب يرضى بالحرمان ويأنف من ارتكاب حماقات تخدش سمعة محبوبته، فلا يحرضها على الهرب وإجبار الأهل على الرضوخ للأمر الواقع، ولا يفسد زواجا فرضته مشيئة الأهل والعوائد والتقاليد. وهي الحماقات التي تشيد بها الدراما المحلية أو المستوردة باسم الحب!

يصف عروة حاله بعد عودته من الشام، وما يضطرم في فؤاده من لواعج الأسى قائلا:

تحملت من عفراء ما ليس لي به ولا للجبال الراسيات يدان

كأن قطاة عُلقت بجناحها على كبدي من شدة الخفقان

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفياني

فقالا: نعم نشفي من الداء كله وقـــاما مــع العُــواد يـبتــدران

فـمـا تـركــا مــن رقيــة يعلمانها ولا سُـلـوة إلا وقـد سـقيـانــي

وما شـفيـا الـداء الذي بي كلــه ولا ذخــرا نــصحــا ولا ألــوانــي

فقـالا: شفاك الله،والله ما لــنــا بمـا ضُمنت منـك الضلـوع يــدان

وعلى منوال عروة وعفراء نسجت البادية العربية قصصا عفيفة نذر أصحابها حيواتهم لصون الرباط المقدس، وبذل ولاء عجيب للمُثل في خضم جاهلي يسترخص كل ما حوله،في سبيل شهوة طاغية أو أنانية لا تفتر!

فكان تمسكهم بالطهر و العفاف يسمو بهذه النماذج فوق مستوى الغرائز، حتى لو خلا أحدهما بمحبوبه! يقول جميل بثنية:

وكان التفرق عند الصبــا ح من مثل رائحة العنبر

خليلان لم يقربــا ريــبــة ولم يستخفا إلى منكر.

ومع ظهور الإسلام استشرفت النفوس آفاقا جديدة للحب. وهيأت لها كلمات القرآن معرفة أعمق بالله و النفس و العالم من حولها، فسلك العربي مسالك الهدى و النور ليتخذ مثالا أعلى يتناسب مع عظمة الرسالة. ولم تعد قصص الحب مدعاة للتيه والشرود في الأودية و

القفار بعد أن اتسع نطاقه، وارتقت به تعاليم الدين نحو السعي خلف حب الله،ذاك الحب العلوي الذي تصل به النفس غاية الصفاء لتمسك بطرف ملائكي شفاف!

بادر الإسلام إلى تهذيب العاطفة ووصل المشاعر بالقيم. ونهى عن الإسراف في كل شيء لتستعيد النفس توازنها،و العاطفة حدودها المرسومة. وكان السبيل إلى ذاك التهذيب هو الحث على جعل الدنيا مزرعة للآخرة، ولزوم ما يتطلبه حب الله تعالى من اتباع أمره، واجتناب نهيه، و التأسي برسوله. والتحذير من بذل الأوقات في غير ما يعود على المؤمن بخير العاجل والآجل. وتتابعت الآيات و الأحاديث التي تقرن الحب بمعان إنسانية أخرى يشرف بها كالرحمة و العدل و الصدق، حتى لا يبلغ الحب الفطري بالنفس السوية مرتبة الغلو و الإفراط. يقول الله عز وجل: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة. إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) **الروم.الآية ٢١**. وفي الحديث الذي رواه ابن ماجة وصححه الألباني يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم (لم يُر للمتحابين مثل النكاح).وجسدت معاملته لزوجاته أمهات المؤمنين إطارا للحب في شريعتنا. حب يسمو بالنفس، ويوازن بين انجذابها لاهتزازاته، ومقتضيات الحرص على

آصرة الزواج المقدسة والنهوض بحقوقها وواجباتها. إنه حب مقرون بالرحمة لا بالشهوة فحسب، لأن شرارة الانجذاب تخفت وتزول، ويبقى لزاما على المحب قيامه بالحقوق!

وأما مظاهر الحب المعاصر فقد أفسدها زخم الجنس،والاستحضار الوثيق للمصالح المادية و الاجتماعية. فمنذ الثورة الجنسية التي شهدها العالم نهاية القرن الثامن عشر ارتخت قبضة التعاليم و القيم، وأصبح ما يسميه **جيل ليبوفيتسكي** "الاستثمار الزائد للحب " عنوانا على مرحلة جديدة لا تطمح فيها النفوس لغير سعادة قوامها الحب والاكتمال الحميمي، حتى وإن تطلب الأمر ثورة على القيم والمُثل، وتفجيرا للنشاط الجنسي خارج مؤسسة الزواج، وقفزة نوعية في أعداد المواليد غير الشرعيين!

إنه الحب الذي يعبر عن أنانية مفرطة في العيش بانفصال عن المجتمع بأسره.

وهو الحب الذي يخلف آلاما وأوجاعا وتبديدا للأواصر الاجتماعية، ثم يختتم دورة استحالته بأبشع المآسي.

وهو الحب الذي يحرر غريزة العنف من إسارها، ويئد على نحو مفجع معاني الرجولة و الشهامة والمروءة، حين يبيح للحبيب أن يشعل الحرائق في البلد سعيا خلف محبوبته.

قديما سُئل رجل من بني عذرة: ممن أنت؟ فأجاب: أنا من قوم إذا أحبوا ماتوا!

وحالنا اليوم يكشف عن مجتمع إذا أحب فتيانه وفتياته أهلكوا.. وأتعبوا.. وأماتوا!

الامتنان

الامتنان حالة من الشكر القلبي المتواصل. وبينما يقف الشاكر عند حدود رد الفعل المتولد عن مشهد عطاء أو دفع بلاء، فإن الممتن يعبر عن إدراكه لأسمى معاني الوجود الإنساني على هذه المعمورة!

حين نستعرض برفق منظومة النعم من حولنا، بدءا من ذواتنا ووصولا إلى الكون وظواهره، ندرك كم نحن غافلون عن معظمها، وكيف أن الاعتياد والاستغراق في يوميات العيش يؤديان إلى نوع من التطبيع معها باعتبارها أمورا عادية.

يغمض الإنسان عينيه ويخلد إلى النوم، بينما عشرات وربما مئات الآليات المبهرة وشديدة التعقيد مستمرة في عملها ليستمتع بنومه، ثم يصحو ليستقبل يوما عاديا بنظره؛ فلا جديد غير شروق الشمس وغروبها، واللهاث خلف الأماني البعيدة، أو الفرار من هموم ألصقها بذاته غفلة أو عنوة، ثم لا يدري أين المفر! ولو توقف لحظة ليتساءل عن الحكمة من كل هذه المخلوقات الخادمة لوجوده لاكتشف في باعث الامتنان سر سعادته، وصفاء نفسه، وسكينة روحه.

في الامتنان يتجدد اعتراف العبد بعجزه عن مواصلة العيش لولا فيض الكرم الرباني. إنه وضع لا تنفصل فيه الأسباب عن المسبب، ولا يدعي فيه المنجز البشري استقلاله عن الغائية، و الحكمة من وجوده: {إني جاعل في الأرض خليفة}البقرة:٣٠.إن هذه الآية هي فاتحة العطاء الذي يستدعي الامتنان العميق. وما نعاينه اليوم من آلام ومآس، ومشاهد ظلم وفساد يؤكد تلك المهمة ولا ينفيها؛ فكلما انزاح الإنسان عن وظيفته فإنه يلقي بنفسه في دوامة التيه والحيرة والأسى. أما إذا ربى قلبه على مشاعر الامتنان، والجمع بين مشاهدة النعم واللوم على التقصير، فإن الألطاف الإلهية تشمله بمعاني الطمأنينة واليقين، وإدراك عواقب الأمور.

"أفلا أكون عبدا شكورا؟"، هكذا رد النبي صلى الله عليه وسلم حين رثت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لحال قدميه المتورمتين من طول القيام. إن عظمة الامتنان تكمن في الفعل لا في القول فحسب. وقد وجه النبي صلى الله عليه وسلم أنظار أمته إلى ما ينطوي عليه باعث الامتنان من إيجابية كفيلة بتبديد الهموم، وتخفيف الأحمال، والقطع مع مشاغل الدنيا التي تذهب بالأعمار!

جمع النبي صلى الله عليه وسلم حذافير الدنيا في ثلاث نعم: أن تصبح آمنا في سربك، ومعافى في بدنك، وعندك قوت يومك. ثلاث

عطايا تستوجب الامتنان لأنها تمثل حقيقة السعادة التي يجهل أكثر الناس السبيل إليها. ولو تأملنا الآفات التي تضج بها المجتمعات البشرية لكان مردها إلى الغفلة عن تلك الأصول الثلاثة للحياة الطيبة:

فالفوضى والاضطرابات والحروب تبدد صفاء العيش.

والآلام والأوجاع تنغص على الإنسان وجوده.

أما الأزمات الاقتصادية فتصيب الناس بالجنون، وتبرر دواعي الاقتتال وسفك الدماء.

غير أن أهل الشكوى يرون في ذلك مقوما عاديا من مقومات الوجود البشري، ولا يستدعي الوقوف عنده، وإنما المضي قدما لمزيد من السيطرة والتملك، والتبديد.

إن إعادة النظر في فهمنا السائد للنعم خطوة أولى لبلوغ حال الامتنان الدائم، والشكر القلبي الذي لا ينتظر مناسبة أو حدثا. **ولابن القيم** كلام رصين في (الفوائد) إذ يقول: "النعم ثلاثة: نعمة حاصلة يعلم بها العبد، ونعمة منتظرة يرجو، ونعمة هو فيها ولا يشعر بها". وتمام النعمة الأولى يكون بالشكر عليها، أما الثانية فيكون بالدعاء والاجتهاد بالطاعة، في حين أن الثالثة هي خلاصة الامتنان،وثمرة

باطنة بين العبد وربه. لذا كان من دعاء **ابن الجوزي** رحمه الله قوله: اللهم أرنا الأشياء كما هي!

يُحكى أن أعرابيا دخل على هارون الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين، ثبت الله عليك النعم التي أنت فيها بإدامة شكرها، وحقق لك النعم التي ترجوها بحسن الظن به ودوام طاعته، وعرّفك النعم التي أنت فيها ولا تعرفها لتشكرها، فأعجب الرشيد بذلك وقال: ما أحسن تقسيمه!

وأعظم الناس امتنانا هم الأنبياء، ثم الصالحون الذين أثمرت محبتهم لله وخشيته نفاذا لعمق الأشياء و الظواهر. وأبلغ تجلياته هو تفاعلهم مع البلايا بغير منطق الشكوى والاحتمال، بل يكونون في حال من الرضا والإقبال على الله، واليقين التام بأنه أرحم الراحمين، وأن المحن تثمر المنح والعطايا.

حين تستشعر الامتنان فإن أداءك للفرائض لا يعكس امتثالا للشريعة فحسب، بل يصبح سعيا نحو المزيد من القرب، وتغذية الروح بما ترمي إليه الجوارح من معاني المحبة والتذلل و الخضوع.

وحين يغمرك الامتنان يتملك نفسك توق شديد للتضحية بكل شيء في سبيل مرضاته تعالى، وتحلق روحك مع الملائكة، فلا يكون حالك في الدنيا إلا كحال الراكب: استظل بظلها ثم ارتحل!

الداعية المكلوم

حين يكون الداعية محط الأنظار يصبح حيز واسع من حياته، وقدر كبير من تصرفاته وردود أفعاله في دائرة الضوء. يستوثق بها المتتبع من مطابقة قول الداعية فعله، وتخلقه بما يدعو الناس إليه، كما يتحين من خلالها الخصم و العدو ما يتخذه غرضا للطعن والهمز واللمز، وتحطيم جسر الثقة الذي يجهد الداعي في سبيل وصله وتمتينه.لذا حين تُلم بالداعية محنة أو فجيعة فينبغي لحسه الدعوي أن يظل متيقظا، و لنفسه التي بين جنبيه أن تكتم ما يُظهره العامة من الشكوى والألم.وليس في الأمر إخراج له من نطاق البشرية الموسومة بالضعف و العجز،لكنها لوازم مسؤوليته الدعوية وما تفرضه من اقتفاء أثر الأنبياء شبرا بشبر، وذراعا بذراع!

للشيخ محمد الغزالي كلام نفيس في تحديد المسافة الفاصلة بين الداعية وسائر الناس، حين تتخلل حياته ما اقتضته المشيئة من مُلمات الدهر ونوائبه. يقول رحمه الله:"إن الدعاة الذين يكرسون أوقاتهم لله، ولدفع الناس إلى سبيله، لابد أن يكون شعورهم بالله أعمق، وارتباطهم به أوثق، وشغلهم به أدوم، ورقابتهم له أوضح.

أي إنهم إذا هبطوا من مجال الضوء المشرق، فإلى قريب منه، إلى منطقة شبه الظل كما يقال. أما إذا سقطوا في عتمة، فإن ذلك أمر لا تتحمله وظيفتهم "[٧].وعلى ضوء هذا الكلام تقاس أحوال الدعاة اليوم، خاصة أمام اتساع واضح لمساحة القول، وانكماش بَيّن للأثر ووازع الاقتداء.

ينص الحديث الشريف على أن شدة البلاء متعلقة بتفاوت المراتب. لذا كانت حياة الأنبياء عليهم السلام تجليا لصور البلاء و المكابدة الدائمة، لأجل التمكين لنور الحق وسط ظلمات الجهل و الشرك و الطغيان. روى الترمذي في كتاب الزهد من حديث مصعب بن سعد عن أبيه قال:قلت:يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل. يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبا اشتد بلاؤه،وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة. (٢٣٩٨).وحقيقة أن الرجل يُبتلى على حسب دينه تقررها شواهد التاريخ و أحداثه، فما من عالم أو داعية تفرغ لخدمة الحق و السير الحثيث إلى الله إلا وقابلته صنوف البلاء وألوان المشاق التي تمتحن صبره و إيمانه،وتقدم للناس من جهة أخرى نماذج يُحتذى بها في

٧الشيخ محمد الغزالي. مع الله،دراسات في الدعوة و الدعاة. ص١٥١

رفع الهمم و اقتحام العقبة. ولا أعني هنا البلايا المعلومة التي يشترك فيها مع غيره، كالمرض وفراق الأحبة وضيق الحال، فتلك صنوف تُلزمه أن يكون قدوة لغيره عند حلولها، وإنما أعني ما ينشأ عن وظيفته ومرتبته من ضروب الامتحان القاسي، كغضب أولي الأمر، وحرق المصنفات أو منع تداولها، و الحؤول بينه وبين الناس إما بحبس أونفي أو إقامة جبرية! ذاك هو البلاء الذي يقصم الظهر أو يشحذ الهمة، بحسب ما أوتي الداعية من تبصر ووعي باللحظة، وقدرة على مجاوزة الألم الخاص ومعاناة الذات في سبيل ما يؤمن به ويدعو إليه.

كان أبو الفرج بن الجوزي (٥١١-٥٩٧ هـ) فريد عصره في الوعظ و الدعوة إلى الله، وتأليف قلوب الناس حول الكتاب و السنة في زمن ضجت فيه أرض العراق بالفتن. وبلغ من شهرة مجالسه الوعظية أن حضرها الخلفاء والوزراء والعلماء، وغصت لها صحون المساجد بآلاف الخلق الذين أسلم مُشركهم، وجدد مذنبهم توبته بين يديه. كما أوتي رحمه الله قبولا وهيبة وإقبالا عجيبا على مطالعة كل العلوم و التصنيف فيها دون كلل، حتى قال الحافظ الذهبي:ما علمت أن أحدا من العلماء صَنف ما صنف هذا الرجل!وكغيره من دعاة الأمة وعلمائها الأفذاذ فقد شابت مساره

الدعوي ألوان البلايا و المحن التي تلقاها بما يليق بمثله من صبر ورضى، وتلمس لدقائق الحكمة الإلهية في طياتها.

ابتلي الشيخ بغرق مكتبته وضياع معظم كتبه في طوفان بغداد العظيم سنة ٥٥٤ هجرية. و تلك نكبة لا يدرك وقعها على النفس إلا المولع بالكتب قراءة وجمعا وتصنيفا. وابتلي في نفس السنة بموت ابنه عبد العزيز مسموما، و قد كان يقتفي خُطى والده في التفقه و الوعظ حتى حصل له القبول التام. ويقال أن ناسا حسدوه على مرتبته تلك فدسوا إليه من سقاه السم وهو بالموصل.

وفي أواخر عمره دُبرت له مكيدة بسبب سخطه على الروافض و الزنادقة، وإحراق كتبهم التي تسيء للعقيدة وتطعن في ثوابت الأمة بموافقة الخليفة، خاصة كتب الركن عبد السلام بن عبد القادر الجيلي. فلما تولى خبيث منهم الوزارة في عهد الخليفة الناصر،حرص على النيل منه والتحريض ضده حتى أصدر الخليفة أمرا بنفيه إلى واسط، حيث أقام في السجن خمس سنين يخدم نفسه بنفسه وقد ناهز الثمانين!

كما ابتلي رحمه الله بابنه أبي القاسم علي الذي بادره بالعقوق، وترك سبيل العلم و الوعظ الذي ارتضاه أبوه ليغرق في اللهو و

الخلاعة ومصاحبة المفسدين. وبلغ به الأمر أن شارك في التأليب على أبيه في محنته الشهيرة، وسطا على مؤلفاته فباعها بأبخس ثمن! وأبو القاسم هذا هو الذي خصه ابن الجوزي بوصية نافعة سماها " لفتة الكبد إلى نصيحة الولد "،يحثه فيها على تجديد الصلة بمشواره العلمي، ويُضمنها قواعد تربوية سديدة ونتفا من سيرته في طلب العلم.غير أن الابن عاند ولم يستجب، فاضطر ابن الجوزي إلى هجره ومقاطعته، بل ذهب ابن النجار إلى أنه كان يدعو عليه كل ليلة وقت السحر![٨]

لاشك أن ما لقيه ابن الجوزي من محن يقف خلف استعراضه للأمر من زوايا مختلفة. صحيح أنها وردت متفرقة في ثنايا بعض مواعظه وخواطره، لكن لو تم تجميعها لتبين حرصه على التقاط كم من الإشارات و اللطائف المصاحبة للبلاء. وهنا يكون للحس الدعوي دوره في استثمار المحن لبلوغ فهم متجدد لمضمون آية قرآنية أو حديث شريف.

خص ابن الجوزي، في كتابه "صيد الخاطر "،سُنة الابتلاء بفصول متفرقة تؤكد براعته في التقاط معان متخفية، ورسائل ثاوية في طيات كل بلية. بل إن عبارات بعينها تؤسس لما يمكن أن نعتبره

٨شمس الدين الذهبي. سير أعلام النبلاء. ج٢٢/٣٥٣

أدب المسلم في المحن، و ضوابط التلقي الوجداني لما اقتضته المشيئة.

إن لحظة وقوع البلاء هي محك الإيمان و الدليل على قدره وقوته. فالمؤمن الحق من إذا اشتد البلاء قوي تسليمه ولم يتغير قلبه. وكل اعتراض يخالج نفسه فهو إيذان بخروجه من مقام العبودية إلى مقام المعارضة كما جرى لإبليس.لذا ينبغي عليه في محنته أن "يراعي الساعات، ويتفقد فيها أحوال النفس، و يتلمح الجوارح، مخافة أن يبدو من اللسان كلمة،أو من القلب تسخط " [٩].

وأما من رام التخفيف من وقع البلية،فليتصور نزول أعظم منها، وليتخيل ثوابها وأجر احتمالها حتى تطمئن النفس فلا تجزع. لأن البلاء على قدر الرجال، يتفاوت بتفاوت الهمم. وأما رضى آخرين بما عندهم فهو " دليل على أنهم لم يُرادوا لمقامات الصبر الرفيعة، أو لأن الله تعالى علم ضعفهم عن مقاومة البلاء فلطف بهم. "[١٠]

إن البلاء المحض هو ما يشغل المرء عن ربه، أما ما يحمله على التضرع و الدعاء وطرق الباب ففيه الخير العميم الذي تذهل عنه

---

[٩] أبو الفرج بن الجوزي.صيد الخاطر.ص ٦٩

١٠ صيد الخاطر.ص ٢٠٥

العقول حال الصدمة. إنه بمعنى آخر عطاء يستلزم الصبر على تأخير الإجابة ومخالفة المراد.

حين يتلمس المسلم ببصيرته ما في طيات المحن من رسائل وإشارات إلهية، يستوي لديه العطاء و البلاء لأنهما في الحقيقة وجهان لعملة واحدة قوامها: اللطف الإلهي. لكن، هل يعني ذلك ألا وجود لمحنة حقيقية يعتصر لها القلب المتيقظ ألما وأسى؟ يرد ابن الجوزي قائلا:"إنما المحنة العظمى أن تُرزق همة عالية لا تقنع منك إلا بتحقيق الورع، وتجويد الدين،وكمال العلم،ثم تبتلي بنفس تميل إلى المباحات "[١١].

في كتابه " النصائح الدينية و النفحات القدسية " يُذيل الإمام الحارث المحاسبي حديثه عن البلاء بقول مأثور عن بعض أهل العلم، يُكثف على نحو بليغ ما يُعوزنا اليوم من فهم متجدد وأصيل لما ينطوي عليه القدر من بلايا:

إن الذي لا يفرح بالمصيبة، لما يرجو من كفارة الخطايا تقول الملائكة:داويناه فلم يبرأ!

١١صيد الخاطر.ص ٢٠٥

التمــادي

يحتكم المسلم خلال مقامه على هذه البسيطة إلى منهج رباني يحدد علاقته بخالقه وبني جنسه ثم سائر الموجودات. لذا شكلت العبادات والمعاملات والأخلاق منظومة متماسكة، يفضي كل عنصر فيها إلى الآخر في تناغم مذهل يضمن للجهد الإنساني حرثي الدنيا والآخرة. وإذا كان ابن آدم قد كُتب عليه حظه من المعصية والإثم، إلا أن باب التوبة المشرع دوما يستحث كل مسلم على المبادرة لاستعادة توازنه النفسي بالاستغفار والذكر، والإقبال على الطاعات التي تحرره من مغبة الوقوع مجددا في فخ المعصية. بيد أن هناك نفوسا يلذ لها ترك الحبل على غاربه، ويعز عليها مفارقة الأهواء والميول و النزوات انقيادا لضوابط الشرع الحكيم، فلا تجد بدا من الاحتكام إلى تأويل فاسد أو رأي سقيم أو قياس باطل يجيز لها التمادي في المعصية والإثم. ومن يستعرض أخبار الضالين وأحوالهم في الخطاب القرآني سيقف دون شك على شواهد عديدة لما يفضي إليه التمادي من تصرفات ومواقف عجيبة يستنكفها اللبيب!

يحيل التمادي في مدلوله اللغوي على السعي والإصرار لبلوغ الغاية من أمر أو فعل. وفي لسان العرب لابن منظور" تمادى فلان في غيه إذا لج فيه وأطال مدى غيه أي غايته،وأبى أن ينصرف عنه ".وبذلك يعكس التمادي مظهرا من مظاهر جنوح النفس إلى التحرر من القيم والقواعد الموجهة للسلوك، والتمرد على الضوابط التي تصون اعتدال النفس وسلامة الكيان. أما منشأ هذا الجنوح فمرده إلى سببين اثنين، أولهما يتعلق بما أودعه الله في النفوس من دافع الاستمتاع بملذات الحياة وشهواتها. قال تعالى(**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة و الخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) آل عمران:١٤**.أما الثاني فذو صلة بما يوسوس به الشيطان من فساد الأحكام والتصورات كالتقليل من حجم المعصية وأثرها اغترارا بحلم الله وإمهاله، أو اتخاذ أفعال الغير مرجعا لتبرير اقتراف الإثم كما هو الحال في مجتمعاتنا اليوم!

إن الضوابط والحدود التي قررها الدين ليست مفروضة على النفس من الخارج، بل هي منسجمة مع رغبة الالتزام الفطرية التي تُشعر المرء بأن هناك قوة خالقة ينبغي الانصياع لإرادتها. غير أن في

بعض النفوس انحرافا يدفعها للتحلل مما تعده إكراها بينما هو في الحقيقة تنظيم وترشيد. إن ما تفرضه الديانات السماوية،يقول الأستاذ محمد قطب، ليس هو الدين ولا العقيدة،ولا التزامات العقيدة، ولا القيم المرتبطة بالعقيدة، وإنما هو النهج الصحيح في كل هذا الأمور".(دراسات في النفس الإنسانية.ص٢٢٧)وأهم سمات النهج الصحيح في ديننا الحق هو الاعتدال في نشاط الجسم والروح، والانسجام بين متع الدنيا وحرث الآخرة. وتلك سمة تطمئن لها النفس السوية، وتضطرب لها النفس المعوجة التي ترى في الاعتدال والتنظيم تضييقا وإكراها.

وينشأ التمادي عند أبي حامد الغزالي في من جهل المرء بالدنيا المذمومة وما ينبغي أن يُجتنب منها. فكل ما كان باعثه الحظ العاجل دون الاستعانة على التقوى يدخل في نطاق الدنيا المذمومة. يقول الإمام الغزالي رحمه الله " إن القدر الذي لا بد منه من القوت والملبس والمسكن، إذا أخذه العبد من الدنيا للآخرة لم يكن من أبناء الدنيا، وكانت الدنيا في حقه مزرعة للآخرة. وإن أخذ ذلك لحظ النفس، وعلى قصد التنعم صار من أبناء الدنيا والراغبين في حظوظها"(المهذب من إحياء علوم الدين.ج٢.ص:١٢٨).والمتمادي لا يزعم أن مراده من الاستغراق في اقتراف الآثام أو التنعم

بالمباحات زيادة إقبال على الطاعات والعبادات، أو تحقيق متطلبات روحية بقدر ما يدعي استمتاعه بحظه من الدنيا حتى وإن جاوزه إلى السرف والظلم والطغيان.

أما عند ابن الجوزي فإن التمادي وإطلاق النفس في المعاصي تحديدا ينشأ من التلبيس على المرء فيما يتعلق بإدراك معاني الرحمة والعفو الإلهيين، فيقيم العبد على المعاصي ويتمادى في ارتكاب الآثام ولسان حاله يقول: الرب كريم و العفو واسع و الرجاء من الدين!(تلبيس إبليس.ص:٣٩٤)،بينما العاقل ينظر إلى جانب العذاب كما ينظر إلى جانب الرحمة، ويحرص على التوبة لأنها السبيل الحق إلى الرحمة مصداقا لقوله تعالى (**وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى**) **طه: ٨٢**

من ثمار التمادي سلب حلاوة الطاعة، فلا يكون حظ المتمادي منها سوى تعب الجوارح. وفي أخبار الصالحين أن عابدا رأى في المنام أنه يحدث ربه فقال: أي رب كم أعصيك ولا تعاقبني، فجاء الرد: كم أعاقبك ولا تدري، أليس قد حرمتك لذة مناجاتي!

ومن ثماره كذلك أن يتوهم العقوبة نفعا فيُسر بالمال الحرام وظلم العباد، ويحسب استدراج الحق سبحانه له زيادة تشريف وحظوة دون سائر الخلق.

أما أعظم ثماره فهي ادعاء الربوبية ليبسط المتمادي كامل نفوذه، فلا يقف حائل دون تحقيق رغباته ونزواته. ولعل في خبر فرعون والنمرود وغيرهما من طغاة التاريخ تجليا لآفة التمادي، وما يمكن أن يفضي إليه الاستغراق في النعم و اتباع الهوى والشهوات من تجريد للإنسان من سمو التكليف الإلهي بالاستخلاف والإعمار.

يرزح المجتمع الإسلامي المعاصر تحت وطأة اهتزاز قيمي وتفكك اجتماعي بفعل اللهاث المتزايد خلف الترفه والتنعم، حتى انطمست في النفوس حقيقة الدنيا كما صورها الخطاب القرآني. و ناشئتنا أحوج ما تكون اليوم إلى تعريف بفقه حقيقة الدنيا، وما ينبغي أن يتسلح به المسلم من قيم الوسطية والاعتدال،والقصد في طلب الحرث العاجل.

القراءة «الحِمارية»

استوقفتني العبارة في كتيب للدكتور **طه جابر العلواني** عن الوحدة البنائية في القرآن المجيد، فارتأيت أن تكون عنوانا لقراءة سائدة؛ تنتشر اليوم في فضائنا الإسلامي بعد أن كانت توصيفا لليهود في علاقتهم بالتوراة! وإذا كان التشبيه بالحمار ينفي حقيقة القراءة، مادام هذا الأخير لا يقرأ ولا يفكر ولا يتعظ،إلا أننا نتابع اليوم على مواقع الأنترنيت وصفحات التواصل الاجتماعي وضعا قرائيا تصح تسميته بالحمارية، لاقترابه المتزايد من حالة "حمل الأسفار" دون فهم أو دراية، أو إدراك لطبيعة النص القرآني وخصوصيته.

إن القرآن الكريم، حين يدعو إلى النظر والتفكر والتدبر والاعتبار، فهو يفسح المجال للقارئ كي يُجري مقارنة بين الآيات المسطورة وأختها المنظورة في الكون من حوله؛ سواء كانت كوكبة الموجودات الدالة على عظمة الخالق، أو آثار الحضارات الغابرة الدالة على فاعلية السنن. غير أن «الحمارية» تؤسس لفصل معيب بين القراءة ومقاصدها الحقة، وأولى تجلياتها: حفظ الحروف وإضاعة الحدود.

توقف الإمام **الحسن البصري** يوما عند قوله تعالى { كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب}-سورة ص:٢٩- فقال: وما تدبر آياته إلا اتباعه بعقله. أما والله ما هذا بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى أن أحدهم ليقول: إني لأقرأ القرآن فما أسقط منه حرفا، وقد والله أسقطه كله، فما يرى له القرآن في خلق ولا عمل. وتلك حال يُعاينها المرء اليوم لدى فريق استهوته المكاسب الدنيوية للتلاوة، واحتج بأن القرآن مُتعبد بتلاوته رغم أن الآيات والأحاديث تنص على خلاف هذا القول إن أخِذ على إطلاقيته.

للقراءة هنا أحوالها النفسية التي تؤسس لفارق دال بين النص الإلهي وغيره من كتابات البشر. ودليل ذلك أننا نجد في السيرة النبوية وحياة الصحابة مواقف تؤكد دور التهيئة القلبية في إعطاء التلاوة مدلولها الحق. منها استحباب ترديد الآية لاستشعار مدلولها وتدبر معانيها. فقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بآية يرددها حتى أصبح، وهي قوله تعالى: {إن تعذبهم فإنهم عبادك}-المائدة: ٧٨- وكذلك فعلت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها مع قوله تعالى: { فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم}-الطور: ٢٧-.

ومنها إظهار الحزن بالبكاء أو التباكي، وهي الحالة التي يعدها **النووي** في **"التبيان"** صفة العارفين وشعار عباد الله الصالحين،

لأنها تتولد من تأمل آيات التهديد والوعيد مع استحضار الغفلة والتقصير في الطاعة. ومن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر الخواص، فليبك على فقد ذلك، يقول **الغزالي**، فإنه من أعظم المصائب!

ومنها كذلك الحض النبوي على معايشة دائمة للقرآن من خلال ورد يومي لا يغفل عنه صاحبه. يقول صلى الله عليه وسلم:" من نام عن حزبه من الليل أو عن شيء منه فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كُتب له كأنما قرأه من الليل" (صحيح مسلم:رقم٧٤٧). وكان الصحابة رضوان الله عليهم يرون في الغفلة عنه أمرا جللا، كما في خبر أبي أسيد الأنصاري رضي الله عنه حين قال:" نمت البارحة عن وردي حتى أصبحت، فلما أصبحت استرجعت؛ وكان وردي سورة البقرة، فرأيت في المنام كأن بقرة تنطحني".

وتحديد الورد هنا مسألة مقيدة هي الأخرى بكمال الفهم، وقد نبه السلف على أن الباحث في القرآن عن اللطائف والمعارف، أو المشغول بإحدى مهمات الدين له أن يقتصر في ورده على قدر لا يحصل به إخلال، ومن لم يكن من هؤلاء فليستكثر من غير خروج

إلى حد الملل. وبذلك تظل القراءة حتى في يوميتها واسترسالها مشروطة بتوازن بين الحروف و الحدود!

ومن تجليات القراءة «الحمارية» ذاك السعي الحثيث لتجريد النبوة من مرتبتها الروحية، لكونها تلقيا للعلم بغير وساطة من العقل أو الحواس. وهو التلقي الذي يغيظ بعض القلوب فتندفع نحو قراءة مباشرة، تسقط التفسير المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

نشأت بوادر تلك القراءة في زمن الصحابة، غير أنها كانت مواقف أفراد لم يكتب لها الانتشار. فحين اعترض أمية بن خالد على صلاة السفر لأنه لا يجدها في القرآن، رد عليه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: يا أخي، إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم ولا نعلم شيئا، فإنما نفعل كما رأينا محمدا صلى الله عليه وسلم يفعل.

وعن أيوب السختياني أن رجلا قال لمطرف بن الشخير: لا تحدثونا إلا بالقرآن، فقال له مطرف: و الله ما نريد بالقرآن بدلا؛ ولكنا نريد من هو أعلم بالقرآن منا. وهكذا ظل التجاذب محدودا قبل ظهور الفِرق وتداول شبهاتهم بين الجهلة من أبناء المسلمين.

أما في العصر الحالي فإن المتشبعين بالسياق البروميثيوسي للمعرفة، يجددون «الحمارية» عبر محاولاتهم المتكررة لإضفاء البشرية على النص الإلهي، ونبذ فاعليته في لحظة زمنية سيطر خلالها العلم على الطبيعة، وبات قاب قوسين أو أدنى من اختراق المجهول!

وتأخذ القراءة «الحمارية» تجليا ثالثا عبر سلوكات تفشت بشكل محزن في بلاد المسلمين، وفي مقدمتها العلاج بالرقى الشرعية، واستئجار مقرئين عند القبور. حيث تحول الاستنجاد بالقرآن للشفاء أو تفريج الكرب إلى إساءة قراءة، وتعريض النص الإلهي للاستخفاف!

إن نصوص الكتاب والسنة واضحة في التأكيد على أن القرآن الكريم شفاء، غير أن المنطلق التجاري المحض أساء لهذا العطاء الرباني حين انفلت من التنبيهات الشرعية. وهو الأمر الذي تفطن إليه **ابن القيم** في (**الجواب الكافي**) بقوله:" إن الأذكار والآيات أو الأدعية التي يستشفى بها ويرقى بها هي في نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعي قبول المحل، وقوة همة الفاعل وتأثيره. فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المنفعل، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء". وبتعبير آخر فإن فشل العملية

يؤدي إلى فقدان الثقة في النص القرآني، بينما يعود السبب حقيقة إلى جهل الراقي أو المعالج بالتشخيص ومعرفة أسباب المرض.

وأما استئجار مقرئين عند القبور فتلك قراءة متهافتة يحار اللبيب في إدراك القصد من ورائها. وحين سئل شيخ الإسلام **ابن تيمية** عن المقرئين بالأجرة وهل تصل قراءتهم إلى الميت، نفى رحمه الله مصداقية الفعل بقوله: "إن القرآن الذي يصل ما قرئ لله، فإذا كان قد استؤجر للقراءة لله، والمستأجر لم يتصدق عن الميت، بل استأجر من يقرأ عبادة لله عز وجل لم يصل إليه".

تتبدد « الحمارية» بالجمع بين حسن القراءة واستقامة الفهم، وبذل الجهد ليكون التفاعل مع النص القرآني حجة للمرء لا حجة عليه. وهو الوضع الذي يحسن بحملة القرآن أن يطابقوا الخطى مع الطريق لبلوغه، فإن الله تعالى مثلما يرفع بهذا الكتاب أقواما، فإنه يضع به آخرين!

الوقائية نهج إسلامي

جزء من متاعب الحركة الإسلامية مرتبط بتجاهل مبدأ الوقاية، و الاكتفاء بالتصدي للمشكل بعد بروزه وتناميه. بالمقابل، أولى النص القرآني أهمية بالغة للنواحي الوقائية، وحرص الهدي النبوي في مواقف شتى على تدريب الجماعة المسلمة على مبدأ الاستباقية، وأخذ الحيطة و الحذر، والمبادرة الذاتية التي تقلل من أثر الفعل المباغت وحجم الأضرار.

على امتداد سبعة فصول من كتابه (التربية الوقائية في الإسلام) يسلط **فتحي يكَن** الضوء على مبدأ تربوي وحركي تناولته نصوص الكتاب والسنة، ونبهت إلى خطورته في بناء الفرد و الجماعة. يتعلق الأمر بمبدأ الوقاية، والتحذير المسبق لمواطن التعثر ومكامن الخلل قبل مواجهتها. حيث يجد الناظر في كتاب الله تعالى آيات عديدة تولي الوقاية أهمية كبرى، إن على صعيد البناء الجسدي أو البناء الحركي.

نص القرآن الكريم على الوقاية الإيمانية بأن جعل طمأنينة القلب ثمرة المعرفة بالله، وبلزومها يتحرر العبد من المخاوف، ودواعي

القلق والهم. يقول تعالى " الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب" سورة الرعد-٢٨.

وأضفى على الشعائر التعبدية بعدا وقائيا بحيث يثمر أداؤها حماية للنفس من الوقوع في المعاصي و الزلات، فالصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر، و الزكاة تطهر النفوس وتزكيها، و الصوم جُنة، إلى غير ذلك من المقاصد التي تؤكد النهج الوقائي وتَدعمه. بل إن الأحاديث الشريفة أثبتت قيمة العافية كما نستشف ذلك من حديث رفاعة بن رافع رضي الله عنه: "سلوا الله العفو والعافية، فإن أحدا لم يعط بعد اليقين خيرا من العافية." **رواه ابن ماجة**(٣٨٤٩).

أما في الجانب التشريعي فيبدو المنهج الإسلامي متفردا ومتقدما على سائر المناهج البشرية، بفرضه أحكاما زجرية تطهر المجتمع من الموبقات، وتتدرج في استئصال الآفات دون عسف أو إكراه.

وعلى مستوى البناء الحركي يؤكد المؤلف بأن النهج العلاجي الذي تبنته الحركة الإسلامية أفقدها مناعتها الذاتية والمكتسبة حين دخلت المعترك قبل استكمال مقومات الصمود: " إن الحركة- أية حركة- عندما تتخطى حجمها، ولا تلتزم حدها، وتعلن من الطروحات ما يفوق طاقتها وقدرتها، تكون قد فقدت المناعة، وسقطت في دوامة

الاستنزاف". في حين أن الوقائية كفيلة بالتقليل من نسبة الخلل إلى حدوده الدنيا، وتضمن سلامة البنية على مستوى الفرد و الجماعة.

وضعٌ مفارق آخر يثيره المؤلف، ويتعلق بإخفاق مناهج التربية في الساحة الإسلامية لأسباب تتصل في معظمها بغياب مبدأ الوقاية. فالعملية التربوية يباشرها العاملون في حقل الدعوة عموما وسط بيئة منحرفة تعجل بإجهاضها، كما أن تراكمية الأسلوب، وافتقاده لنظرية تؤطره يؤدي إلى إضعاف آلية تحويل المفاهيم إلى واقع معاش. ثم هناك الحاجة إلى التخلية قبل الترقية لإعادة بناء الشخصية وفق أوليات شرعية.

بالعودة إلى النهج القرآني يتبين أن عملية التكون الوقائي تعتمد بداية على الإيمان بالله، وتقوية جانب العقيدة. يليها الانتقال إلى مرحلة الإيحاء النفسي بتوظيف القصص القرآني. ومن الأمثلة التي يسوقها المؤلف لتأكيد فعالية هذا النهج تلك الخطوات المتدرجة لاستئصال آفة اللواط من خلال الاستدعاء المتكرر لخبر قوم لوط عليه السلام، ثم النقلة النفسية والزمنية التي حررت الجماعة المسلمة الأولى من معاقرة الخمر إلى إهراقها في الطرقات. وتأتي المعالجة كمرحلة ثالثة لسد أية ذريعة لارتكاب الخطأ مجددا.

وانطلاقا من دراسة حركات إسلامية سابقة، يحدد المؤلف قائمة الثغرات التي أدت إلى انشقاق أو انهيار البناء التنظيمي. وهي في مجملها إفراز طبيعي لتجاهل مبدأ الوقائية.

أولى الثغرات تتمثل في جماهيرية العمل، عن طريق نقل الإسلام من الحالة التنظيمية إلى الحالة الشعبية، مما يؤثر على استكمال البنية التنظيمية وأجهزتها العاملة.

ثانيا يشكل الاهتمام بالكم عبئا على الحركة الإسلامية لارتباطه في الغالب بمتاع الحياة الدنيا، بينما تستدعي الوقائية اهتماما بالنوعية التي تضمن أسباب النجاح.

ثالثا تؤثر العلانية المفرطة، وتبني سياسة العمل في نقطة الضوء إلى كشف وتعرية ساحة العمل الإسلامي. الأمر الذي يعد مخالفة واضحة للنهج النبوي في حثه على التورية والكتمان في مناسبات ومواقف عدة.

أضف إلى ذلك انعدام الوعي السياسي، و العجز عن تحويل الشعار إلى مضمون وعمل يومي، ثم السعي لاختصار الزمن مما يفتح المجال للأخطاء والزلات.

من الشرك إلى البخل وسوء الظن، وصولا إلى الآفات الجنسية وعوامل الفرقة و الاختلاف، تتعدد النماذج القرآنية والتوجيهات النبوية التي تؤكد حيوية النهج الوقائي في التحصين وإكساب المناعة، وأخذ المبادرة لتجنب السقوط في أسر الانحرافات السلوكية، أو الظواهر المرضية. وحري بكل دعوة حية أن تنهج سبيل الوقاية ودرء الأخطار لتحرير العمل الإسلامي من عبء تضميد الجِراح!

السيرة النبوية..رهان تربوي

في ظل احتفاء إعلامي متواصل بنماذج ورؤى وأنماط سلوك باعثة على الانحلال والعنف، و السطحية المغذية لدواعي الفتور والاسترخاء، فإن النظم التعليمية بالعالم الإسلامي تقع على عاتقها مسؤولية جمة لصيانة البناء الفكري والوجداني لناشئتنا، والحد من تأثير الإعلام المختل على سلوك الطفل وعقيدته وحريته الفكرية.

هذه المسؤولية تقتضي حتما تمكينه من صورة متوازنة للعالم حوله، وإكسابه مهارات التفكير النقدي الذي يُمكنه من التفاعل مع الرسالة الإعلامية، دون الوقوع في قبضة المؤثرات العقدية و الثقافية المدمرة.وهو ما يُلزم المدرسة باستعادة دورها كمجال أمثل لبناء الشخصية السليمة وتأصيل القيم الإسلامية.

ولعل من بين الأولويات الأكثر استعجالا، والتي ينبغي أن تنكب هذه النظم على بلورتها و إدراجها ضمن مخططاتها التربوية هي الاستجابة لحاجة الطفل إلى نماذج للاقتداء و التأسي، وإشباع ميله الفطري للتقليد والمحاكاة ؛فمن المؤسف حقا أن يلجأ الطفل المسلم إلى استلهام القدوة من أفلام العنف واللصوصية،وحلبات

المصارعة، بينما يحفل تاريخ أمته بآلاف النماذج المشرفة التي تستحق أن تُدرج في مقرره الدراسي، وتُعرض، وهذا هو الأهم، وفق أسلوب يُغريه بمحاكاتها و التأسي بها في حياته اليومية.

وبما أن كل مجتمع يحرص على أن يُقدم لأبنائه النماذج التي تعبر عن هويته، وتؤصل قيمه ومثله، وتعكس تصوره للوجود من حوله، فإن حياة الرسول صلى الله عليه و سلم هي النموذج الأسمى لغرس القيم، وتكوين شخصية الطفل المسلم وتوجيه مساره الخلقي.إذ لا نعلم في تاريخ الإنسانية كلها سيرة لنبي أو عظيم لقيت عناية وحفاوة ورصدا لأدق التفاصيل كمثل الذي لقيته السيرة النبوية على يد الرعيل الأول من الصحابة، ثم تابعيهم من العلماء و المؤرخين.هذه الميزة الفريدة ترجع بالأساس إلى كون الحياة المحمدية هي المدخل العملي و التنفيذي لمبادئ الإسلام وأركان الشريعة، وهي بوابة الاتباع الحق لمن أسلم وجهه لله امتثالا لقوله تعالى:(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) **آل عمران ٣١**.

و المتأمل في أفعال الرسول صلى الله عليه و سلم ومواقفه يُدرك حرصه الشديد على بناء الشخصية المسلمة وفق منهج متوازن يستجيب للفطرة السليمة، ويُحفز الإرادة الحرة على العطاء

والإبداع مالم تصادم الشريعة.ولذلك تشكل السيرة النبوية سجلا تربويا حافلا بالقيم و المعايير والمهارات الكفيلة بإحداث نقلة نوعية في كيان الطفل المسلم، لأنها " تمثل مواقف عالية من الإنسانية التي لا ترقى إليها مواقف أخرى، وعرض هذه المواقف في سموها وعلوها تعطي التلميذ انطباعا بمحاولة التشبه والتأثر، وبخاصة إذا كان السلوك صادرا عن الرسول صلى الله عليه و سلم أوعن أحد صحابته وحوارييه "(١٢)

لكن، هل يمكن القول بأن حضور السيرة النبوية في النظم التعليمية هو حضور يعكس بالفعل المكانة التي تحظى بها عند المسلمين؟ وهل تحقق الأساليب المتبعة في تدريسها مقصد التأسي و الاقتداء، أم أنها تقف عند حدود الرصد التاريخي والسرد التفصيلي للأحداث؟إن الإجابة عن هذين السؤالين ترتبط بشكل وثيق بواقع تدريس التربية الإسلامية في مراحل التعليم قبل الجامعي، وهو واقع يؤكد الدارسون له بأنه لا يستجيب حتما للتطلعات والمرامي المُعلن عنها في المناهج الرسمية،و ينتج عنه بروز اتجاهات سلبية لدى المتعلمين إزاء مقرر التربية الإسلامية.

١٢محمد صلاح الدين مجاور: تدريس التربية الإسلامية. الكويت. دار القلم ١٩٧٦.ص ٣١٥

كيف نُدرس السيرة النبوية؟

يقتصر الحضور التربوي للسيرة على جعل التلميذ قادرا على استيعاب الأحداث في بعديها الزماني و المكاني،كما يُستعان ببعض مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم كمنطلقات لدرس الأخلاق والآداب الإسلامية. وإذا كان هذا الحضور يُغني معارف الطفل ويبذر في وجدانه محبة الرسول إلا أنه لا يُحقق مقصد التأسي الفعلي الذي نطمح إليه، إضافة إلى أن تغليب السرد التاريخي دون العناية بتحليل المواقف ورصد أبعادها يجعلها في نظر الطفل مبتورة الصلة بواقعه ومشكلاته اليومية.لذا فإن من أنسب المنطلقات المنهجية هو التوسع في تناول المواقف وتحليلها، والاهتمام بدراسة الحقائق والمعاني وكشف الأبعاد الإنسانية. وهو ما يُزكيه الدكتور **سعيد إسماعيل علي** بقوله " ومن هذه الأساليب أيضا أن يتمحور تناول السيرة حول قضايا ومشكلات بدون الالتزام بالترتيب الزمني،إلا داخل القضية المختارة إذا كانت تقتضي ذلك، فاختيار-مثلا- بُعد الجهاد المسلح يقتضي تناول الغزوات بترتيبها الزمني، لكن قضية مثل السيرة كقدوة خلقية، فلا يشترط هنا ترتيبا زمني، وإن كان هذا لا يعني أيضا التغافل عن السياق الذي وُجد فيه

الحدث الذي يُبرز هذه القيمة أو الفضيلة الأخلاقية أو تلك " [١٣].

كما ينبغي حفز الطفل على إعمال فكره في استنباط القيم والمبادئ والسلوكيات الإيجابية بدل تقديمها في قالب وعظي مباشر، وهو ما يُلزم المدرس بتوظيف وسائط تعليمية في عرض أحداث السيرة، كالخرائط و الصويرات والوسائل السمعية البصرية.

ويرتبط إحداث النقلة النوعية في تدريس السيرة ارتباطا وثيقا بكفاءة المدرس وفاعليته، ومدى حرصه على تفعيل الجانب الإجرائي والعملي للحقائق والمفاهيم التي يُلقنها لتلاميذه. ذلك أن خصوصية التربية الإسلامية، وانفرادها بمهمة تهذيب الوجدان والارتقاء بدوافع الطفل و سلوكه تتطلب إعداد مهنيا دقيقا، وتلقي على كاهل المدرس مسؤولية توجيه سلوك التلاميذ،وحملهم على التطبيق العملي للمثل والقيم الكفيلة بتحقيق اندماج أفضل.

إن استعادة الشخصية المسلمة رهان ينبغي كسبه في عالم يشهد قفزات سريعة على مستوى التطور المادي،لكنه يعيش في الآن ذاته تجليات ردة روحية وأخلاقية مدمرة.وميزة السيرة النبوية أنها تقدم نماذج بشرية للقيم والمبادئ الإسلامية، كما تهيء للمسلم المعاصر

١٣د.سعيد إسماعيل على. السنة النبوية رؤية تربوية. دار الفكر العربي.القاهرة ١٤٢٣ هـ.ص ٥١١ – بتصرف -

ما يلزمه من مقومات لبناء المجتمع الصالح، وإعادة تأكيد هويته الإيمانية الحقة.

تعليقة الغزالي

خلال رحلته الأولى لطلب للعلم، وهو بعد في مقتبل العمر، تعرض حجة الإسلام **أبو حامد الغزالي**[٤٥٠-٥٠٥هـ/١٠٥٨-١١١١م] لموقف طريف وثقه ابن تاج الدين السبكي في (طبقات الشافعية)، مفاده أن لصوصا اعترضوا الجماعة التي كان فيها وسلبوهم كل ما معهم. يقول الغزالي: فتبعتهم، فالتفت إلي مقدمهم وقال: ارجع ويحك وإلا هلكت، فقلت: اسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد علي تعليقتي، فما هي بشيء تنتفعون به، فقال: وما هي تعليقتك؟ فقلت: كتب في تلك المخلاة، هاجرت لسماعها وكتابتها، ومعرفة علمها. فضحك وقال: كيف تدعي أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها، وبقيت بلا علم؟ ثم أمر ببعض أصحابه فسلم إليه المخلاة. قال الغزالي: هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به في أمري، فلما وافيت طوس، أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته، وصرت بحيث لو قطع علي الطريق لم أتجرد من علمي".

نحن أمام فتى بلغ شغفه بالعلم أن اعترض سبيل اللصوص راجيا منهم استرداد كتبه، فبينوا له الخلل في منهجه ليستدركه، وتنبه

الفتى إلى أن في توجيههم إشارة إلهية عليه أن يلتقطها، فاستدرك الخلل وغير المنهج. لكن أمر التعليقة ليس خاصا بالغزالي وحده، بل هو اليوم شأن كل مسلم يستشعر ما يُحاك ضد ذاكرة الأمة، وينبغي له إعادة النظر في أولوياته، و التخفيف من أنانية العيش في سبيل نصرة المشترك، أعني الدين والهوية والمخزون الحضاري.

يزخر العالم الإسلامي بنماذج عدة سعت لاسترداد "تعليقتها"، وتحويل حلم عادي وبسيط إلى مهمة حضارية. وليس في الأمر ما يفيد الاستثناء، فكل مسلم يصادف في حياته منعطفا يوازن فيه بين مواصلة الحياة كفرد عادي أو الانكباب على مشروع يحمله إلى مصاف الملهمين الكبار. والسعيد من أجاد قراءة الإشارة الإلهية ليرفع عن طواعية ذاك التحدي.

كانت ندوة للمستشرق الألماني **هيلموت ريتر** عن العالم الإسلامي كفيلة بدفع الطالب **فؤاد سَزكين**[١٩٢٤-٢٠١٨م] للتخلي عن حلمه في الالتحاق بكلية الهندسة، والإقبال على البحث في تاريخ العلوم الإسلامية. ودلّه أستاذه **"ريتر"** على أول الطريق بتتبع إسهامات علماء المسلمين في إرساء أسس الرياضيات الحديثة، أمثال **الخوارزمي**، و**أبو الوفاء البوزجاني**، **والبيروني**، و**ابن الهيثم.** ولم يكن سعي **سَزكين** خلف "تعليقته" هينا، إذ تطلب الأمر جهدا شاقا

لتعلم اللغات التي تعينه على فهم المؤلفات الأصلية، كالعربية،والسريانية، والفارسية، والعبرية وغيرها. ثم أقبل على المخطوطات الموجودة بمكتبات بلاده ليسد النقص الذي بدا له وهو يطالع كتاب "تاريخ الأدب العربي" للمستشرق **بروكلمان**، ويتفرغ بعدها لتأليف عمله الضخم "تاريخ العلوم الإسلامية " الذي استنفذ خمسة وخمسين عاما من عمره، إلى جانب إشرافه على تأسيس معهد ومتحف للعلوم العربية والإسلامية في مدينة فرانكفورت بألمانيا.

أسهمت "تعليقة" **سَزكين** في كشف لصوص الذاكرة، وقراصنة الاختراعات الذين حرصوا على طمس النبوغ العلمي للمسلمين، ونسبة الفضل لغير أهله. ومن طريف ما خلص إليه **سَزكين** بعد رحلة طويلة من التنقيب والبحث والمقارنة: مكر الأمة الإيطالية واستحواذها على جزء غير يسير من العطاء العلمي للمسلمين. يقول **سَزكين**:" لم يشهد تاريخ العلوم ظهور أمة تحمل من الذكاء والعقل والاجتهاد والبراعة وقليلا من المكر كالأمة الإيطالية؛ فلقد نقلوا عن المسلمين كل ما يمكن نقله حيث نقلوا العلوم وأخفوها دائما؛ فعلى سبيل المثال ألف الرياضي وعالم البصريات المسلم **ابن الهيثم** كتابين كبيرين ترجما إلى اللغة الإسبانية، ونجد أن ترجمة

هذين الكتابين للإيطالية ظهرت قبل الترجمة الإسبانية بخمسين عاما، وهاتان الترجمتان موجودتان لدى ليوناردو دافنشي، وأنا أرى أن هذا الأخير قرأ كتب ابن الهيثم، إذ كان أحد كتبه يضم رسوما تخطيطية لبعض الآلات، لكنه لم يصنع أية واحدة منها، ورغم ذلك بإمكاننا أن نصفه بالعبقري، غير أن جميع الأشياء الموجودة في كتابه تقريبا منقولة عن المسلمين، ولقد توصلت إلى هذه الحقيقة وأدركتها بفضل الفحوص و التدقيقات التي قمت بها في السنوات الأخيرة "[١٤]

لم يكن **فؤاد سَزكين** سوى نموذج من بين عشرات، وربما، مئات النماذج التي بذلت جهدا كبيرا لاسترجاع "تعليقتها" من اللصوص، وحفظ مخزون الأمة وذاكرتها، وكشف جوانبه المشرقة. وما ترمي إليه العولمة اليوم لا يقل ضراوة عما تعرض له الغزالي، من حيث استنزاف الذاكرة، وتكريس الهوة الخطيرة بين الشباب المسلم وماضيه بتحميله وزر التخلف والتبعية.

إن لكل مسلم "تعليقة" لا بد أن يسترجعها، وأن ينهض بواجب الاستخلاف الذي تستمد منه هذه الأمة خيريتها وشهودها الحضاري. ولن يتحقق ذلك إلا بترسيخ ثقافة الاعتزاز، وتجاوز

١٤د. عرفان يلماز: مكتشف الكنز المفقود فؤاد سزكين. ص ١٠٨

حالة الدونية والشعور بالنقص. وهي الرسالة التي لا يلخصها المجهود العلمي الفائق **لسزكين** بل حتى مواقفه، فقد أبى رحمه الله أن يتسلم جائزة "**هيسن**" الثقافية في ألمانيا عام٢٠٠٩ لأنها مُنحت له مناصفة مع رئيس اتحاد يهود ألمانيا، الذي أدلى بتصريحات مؤيدة للعدوان الصهيوني على قطاع غزة!

ثورة الفقيه

أثناء الهزات السياسية و الثورات الاجتماعية كان المسلمون، ولا زالوا يتوقعون من طائفة العلماء والفقهاء ردودا تتساوق بحدة ووضوح مع خطابهم اليومي، وبلاغة وعظهم وصيانتهم المعلنة لحدود الشريعة. غير أنه، وعلى مر التاريخ، أظهرت الأحداث انقساما في صفوفهم بين نصير للضعفاء ومؤيد لجور السلطان. كان الخطر المحدق،أو طبيعة المرحلة الجديدة، أو انحراف الحاكم في سياسته العامة يحمل بعضهم على الجهر بالحق دون مواربة،والتدخل الحاد في شؤون السياسة، بينما كان بعضهم يؤثر السلامة ويأخذ بالرخصة. أما الطائفة المرذولة فهم الذين عقد لهم **ابن الجوزي** رحمه الله في كتابه **(صيد الخاطر)** فصلا تحت عنوان" المتاجرة بالدين"، ومما قال فيه: وإن أقواما لم يقنعوا وطلبوا لذيذ العيش فأزروا بدينهم وذلوا لغيرهم. وخصوصا أرباب العلم فإنهم ترددوا إلى الأمراء فاستعبدوهم، ورأوا المنكرات فلم يقدروا على إنكارها، وربما مدحوا الظالم اتقاء لشره، فالذي نالهم من الذل وقلة الدين أضعاف ما نالوا من الدنيا.

باستدعاء ما في صحائف التاريخ من نماذج مشرقة انحازت في الشدائد والمنعطفات القاسية لما تبين لها أنه الحق، تنقدح في النفوس شعلة الاقتداء، وتستعيد البوصلة الهادية للفكر والسلوك عافيتها وفاعليتها. وقد كان الإمام **أبو حنيفة رحمه** الله يقول: الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب إلي من كثير من الفقه لأنها آداب القوم، وشاهده من الكتاب قوله تعالى " أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده". والقاضي **عياض بن موسى السبتي** (٤٤٥-٤٧٦هـ) أحد أولئك الأفذاذ الذين أصروا على إخراج "الفقيه" من محرابه ودرسه ليؤدي دوره في مسرح الأحداث اليومية، ويثور ضد حركة استهدفت الوحدة العقدية والمذهبية و السياسية للبلد.

قلما يُذكر اسم القاضي عياض دون أن يقرنه السامع بكتابين جليلين هما **"الشفا بتعريف حقوق المصطفى"** صلى الله عليه وسلم، وهو كتاب في الشمائل النبوية خط عياض في ثناياه صدق المحبة للرسول الأكرم، كما سعى من خلاله إلى توهين مزاعم المهدي بن تومرت التي روج لها لتبرير الانقلاب على المرابطين، وخصوصا القول بالعصمة واتهامهم بالتجسيم. أما الثاني فهو كتاب **"ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك"** وهو ثمرة جهد فكري ومقدرة عالية على المناظرة والترجيح، وجرد الحجج

النقلية والعقلية للدفاع عن فقه مالك رحمه الله، وترسيخ جذور مذهبه في المغرب الإسلامي. غير أن ما يسكت عنه عديد من المهتمين بالترجمة له هو ثورته على الموحدين، ورفضه تسليم سبتة لهم وفاء منه للمرابطين واعترافا بفضلهم في لم شعث المغاربة وإخراجهم من وهدة التمزق المذهبي. وهي الثورة التي انتهت بنفيه وموته مغربا بمراكش.

يذهب الدكتور حسين مؤنس في كتابه **(معالم تاريخ المغرب والأندلس,١٩٩٢)** إلى أن ظهور الموحدين كان بلاء على المسلمين، فهو من جهة صرف المرابطين عن إتمام مشروع الجهاد في الأندلس، وتولد عنه من جهة أخرى صدام بين قوتين إحداهما في أوج عطائها الحضاري والثانية في عنفوان شبابها. ولو تأخر ظهور دولة الموحدين نصف قرن من الزمان لتعاقبتا على الجهاد ولكان تعاقبهما نعمة على الإسلام وأهله، ولكن هكذا شاءت المقادير وخسر المسلمون في هذا التعاصر شيئا كثيرا. وقد كان للشخصية الغريبة لمحمد بن تومرت وطموحه السياسي فضلا عن ملكاته القيادية والتنظيمية دور كبير في تأليب القبائل ضد المرابطين، لذا حين استلم الأمر من بعده عبد المومن بن علي كان السبيل ممهدا لقيام دولة قبائلية على أنقاض كيان سياسي فريد.

بعد سنة ونصف من توليه القضاء بغرناطة عاد القاضي عياض إلى سبتة كي تنظم نفسها تحت إمرته للتصدي لجيوش عبد المومن الموحدي. ولم يكن هذا بالأمر الشاذ في دولة حظي فيها الفقهاء والقضاة بمكانة سامية، وجرأة محمودة في تصدر المشهد السياسي. ومما قاله عياض في إحدى خطبه حاثا أهل سبتة على الوفاء بالبيعة للمرابطين: "أيها الناس، انظروا لأنفسكم، واستيقظوا من غفلتكم، وتأملوا ما يراد بكم، واستعدوا لما أعد لكم، وتحفظوا قبل أن يحاط بكم، فإنكم تستقبلون خطبا جسيما, وتنتظرون عن قريب أمرا عظيما، فقد صار أعداؤكم عليكم إلبا، و تحالفوا عليكم شرقا وغربا، واحتشروا إليكم برا وبحرا، وتعاقدوا عليكم سرا وجهرا، ومدوا لكم من شرهم أمرا امرا، وأنتم عما يراد بكم غافلون، وعما يحل بكم إن لم يدفع الله عنكم ذاهلون، كأنكم من مكرهم في أمان، ولستم بأضدادهم في الدين والإيمان، فقد جدت بكم الحرب فجدوا، وشمرت عن ساقيها فشدوا، وأعدت لكم مكايدها فاستعدوا.."لكن الصمود في وجه الموحدين لم يدم طويلا خاصة بعد بسط نفوذهم على مدينة فاس، فتوجه عياض للقاء عبد المومن سنة ٥٤٠هـ،فأكرمه الخليفة الموحدي،وأقره في منصبه قاضيا على سبتة. وهو مالم يدم طويلا إذ ثارت ربوع المغرب مجددا بزعامة

ابن هود الماسي على السلطة الموحدية، فأعلنت سبتة عصيانها، وأقدم أهلها على إحراق والي الموحدين وأعوانه بعد أن شاع خبر عزمه التخلص من القاضي عياض.

سعى بعض المؤرخين إلى تحميل عياض وزر العنف الذي اتسم به تمرد السبتيين،وهو مالا يُستساغ قبوله بالنظر لمكانة الرجل وعلمه وفضله. بل مرد الأمر إلى كراهية مستحكمة في نفوس أهل سبتة تجاه الحكم الموحدي،فلما سنحت الفرصة انقضوا على واليها وأعوانه وهيأوا لعياض قيادة ثورة ثانية لم تصمد أمام حزم عبد المؤمن وصرامته. وفي هذا الصدد يؤكد المؤرخ أحمد الناصري **(الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى.ج٢.ص١٠٥)** على أن موقف عياض كله صواب وموافق للحكم الشرعي، فما صدر عنه في جانب الموحدين دليل على أنه كان يرى أن لا حق لهم في الأمر والإمامة وأنهم متغلبون. فلما كانت شوكتهم لا تزال ضعيفة توجب عليه الامتناع عن مبايعتهم لأن بيعة المرابطين في عنقه، ولا ينبغي أن يعدل عنها إلى غيرها بلا موجب، وحين قويت شوكتهم وجبت طاعتهم. وثورته الأخرى كانت رجوعا بأهل سبتة إلى طاعة المرابطين الذين لهم الحق في الإمامة بطريق الأصالة. أما قتل والي الموحدين ومن معه،فالظن أن القاضي عياض لا يقره ولا

يرضاه، لكن العامة تتسرع إلى مجاوزة الحدود، لاسيما أيام الفتن، وذلك معروف من حالهم.

بعد أن اشتد الحصار على أهل سبتة أذعنوا وقدم أشياخهم بالبيعة إلى عبد المؤمن فعفا عنهم، لكنه ليأمن غدرهم أمر بإخراج عياض ونفيه إلى مراكش. وقد اختلف المؤرخون بشأن المعاملة التي لقيها في طريقه إلى مراكش، ومهما يكن الأمر فإن محنة التغريب كانت أقسى على نفسه مما عداها لما عُرف عنه من تعلقه الشديد بسبتة، والذي حال حتى دون رحلته إلى المشرق لطلب العلم أو للحج!

انحاز القاضي عياض إلى الشرعية على المستوى السياسي،فلم يخلع بيعة المرابطين عن عنقه، بل نراه إبان الثورة الثانية يركب البحر إلى قرطبة ليجدد البيعة لواليها المرابطي ابن غانية، ويلتمس منه انتداب وال على سبتة، في الوقت الذي كان فيه فقهاء الأندلس يركبون موجة الثورة ليُنصبوا أنفسهم حكاما،ويدعوا الناس لمبايعتهم. كما انحاز للعقيدة الصحيحة والمذهب المالكي السني حين روج ابن تومرت وأتباعه لخطاب ديني،يضج بالمخالفات الشرعية في العقيدة والأحكام. وبذلك أسهم عياض رحمه الله في صيانة نموذج الاقتداء لما ينبغي أن يكون عليه الفقيه،حين لا يستوعب مسرح الأحداث العامة بديلا آخر غير الهزة الثورية!

حِزب السفهاء

تكشف أحداث السيرة النبوية عن تبلور جبهات ثلاث خلال الاحتدام بين معسكري التوحيد و الشرك:

الجبهة الأولى يمثلها صناديد مكة وسادة بعض القبائل الذين ناصبوا النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه العداء، واختاروا المواجهة العلنية بالتهديد و الوعيد، ثم التضييق والحصار المادي انتهاء بالحسم المباشر على أرض المعركة. أما الجبهة الثانية فينضوي تحتها المنافقون من يثرب،ومن حذا حذوهم في إظهار التوحيد و إبطان الشرك،والسعي الحثيث تحت جنح الظلام لإثارة القلاقل،وإشاعة الفتنة ومباشرة الهدم من الداخل. في حين يشكل السفهاء جبهة ثالثة عبرت عن خصومتها ورفضها للرسالة المحمدية بأرخص الوسائل و أقذرها،من شتم واعتداء جسدي ومس بالعرض وغيرها.

قد يحدث تقاطع بين الجبهات الثلاث حين يتورط سيد من الجبهة الأولى في محاكاة السفهاء مثلا،لكنه مرتبط في الغالب بحالة معزولة فقدت الصواب في لحظة معينة ثم عدلت لاحقا عن تكرار

الفعل، كمثل أبي جهل حين آذى النبي صلى الله عليه وسلم وشتمه، فلما ضربه حمزة رضي الله عنه وشجه بالقوس شجة منكرة،أبى أن يتدخل سفهاء من بني مخزوم لنصرته قائلا: دعوا أبا عمارة،فإني والله سببت ابن أخيه سبا قبيحا!

إن الغرض من هذا التصنيف هو تجديد النظر في نوعية ردود الأفعال التي قوبلت بها رسالة التوحيد، وكيف تم استثمارها لاحقا لصالح الدعوة،ثم الكشف عن تجلياتها اليوم في ظل ما يلاقيه الدعاة والمصلحون من محن وشدائد. فهناك العداوة التي لم تخل من توقير للعادات و التقاليد السائدة، وترك حيز مقبول للحكمة والتعقل والتريث، مما أفضى ببعضهم لاحقا إلى التسليم و الإقرار بصدق الدعوة المحمدية. وهي عداوة العاقل الذي يتوجب اليوم احتواؤه وجره إلى ساحة الجدال بالتي هي أحسن، ورد مطاعنه وتبديد شكوكه بالحجة القاطعة و الدليل الناصع حتى يتبين له الحق. ومن مواقف السيرة النبوية التي تُسند هذا الطرح ما حدث لعتبة بن ربيعة،وكان سيدا في قومه،حين اقترح على قريش أن يفاوض رسول الله صلى الله عليه وسلم لترك أمر الرسالة مقابل السلطان والجاه والثروة، فلما تلا عليه النبي صلى الله عليه وسلم آيات من القرآن الكريم رجع إلى أصحابه لينصف خصمه حتى في أشد

اللحظات حرجا وضيقا قائلا:"إني سمعت قولا والله ما سمعت بمثله قط. والله ما هو بالشعر و لا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعوني و اجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه. فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم.فإن تصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلكه مُلككم،وعزه عزكم،وكنتم أسعد الناس به". ولنا أن نتخيل كيف سيكون الوضع لو رجحت كفة رأي الوليد و العقلاء أمثاله في إدارة الخلاف مع الجماعة المسلمة في مكة! ثم هناك النفاق الذي أرسى دعائمه عبد الله بن أبي بن سلول، وأفرد له الوحي سورة كاملة يحدد فيها بدقة عجيبة خصائص هذا السلوك المقيت وأحوال أهله، ويرشد المؤمنين إلى سبل توقي مكائدهم. لقد كان المنافق في يثرب أنموذجا للإنسان الذي أصيب بعمى القلب و انطماس البصيرة،فلم تغمره أنوار الحق في لحظة تاريخية غير مسبوقة: رسول يُربي و يعلم ويزكي،ووحي إلهي يتنزل ليُثمن المواقف ويُثبت الأقدام على النهج القويم، وجماعة مسلمة تصوغ أبلغ معاني البذل و التضحية و السمو بالنفس إلى مراتب الكمال. لذا كان المندسون منهم في مراكز صنع القرار أشد خطرا وأبلغ فتكا بالأمة من عدوها الخارجي،

وكان التحذير القرآني بالغ الوضوح في شأنهم حين قال سبحانه " هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون " المنافقون. الآية ٤.

وأما فئة السفهاء التي عليها مدار هذه الأسطر فهي أبلغ تعبير عن النزق الإنساني،والخفة التي تستبد بالعقل فينطفئ سراجه، وتنفصل أحوال صاحبه عن مقتضى الرشد و الاحتكام للقيم و الأعراف السائدة. وتحيل مادة (سفه) في المعاجم على معاني خفة العقل و الحركة. يقال:تسفهت الرياح الشيء إذا استخفته فحركته. ويسمى الجاهل بطرق التصرف سفيها، ومنه قوله تعالى "و لا توتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قيما " النساء. الآية ٥،وهم النساء و الصبيان لأنهم جهال بموضع النفقة. بيد أن أسوأ تجليات السفه و الطيش هي ما لقيه الأنبياء و المصلحون منذ نوح عليه السلام وحتى يومنا هذا،حيث انتصب السفهاء دوما كأحد خيارات المواجهة التي لا يُشترط فيها التقيد بعرف سائد أو خلق،بل يتاح للسفيه كل أشكال الضرب تحت الحزام،و الحرص على المبالغة في إيلام الخصم ولو بأحط الأساليب و أقذرها، فحيثما كان الترفع سمة الخصم العاقل وجدتَ السفيه يباشر الفعل أو يستكمله. ومن نماذج السفه التي لقيها الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة إيذاء بعض جيرانه له، كعقبة بن أبي معيط،وعدي بن حمراء الثقفي،وأبي لهب

وزوجته. فمنهم من طرح عليه رحم الشاة وهي يصلي، ومنهم من ألقاها في قدر الطعام حتى اضطر صلى الله عليه وسلم إلى اتخاذ سقيفة أو نحوها ليستتر بها منهم إذا صلى،ومنهم من ألقى في ممره الشوك ليؤذي قدميه. وطوال ثلاث عشرة سنة من عمر الدعوة في مكة كرس "حزب "السفهاء جهده لانتهاج أحط أساليب الإيذاء التي يمجها العقل السليم،إرضاء لسيد حاقد "كحالة أبي جهل "،أو تعبيرا عن سخط القبيلة.

وعلى مر التاريخ تكررت الأساليب ذاتها مع علماء و مفكرين ودعاة لتوهين عزيمتهم،وثنيهم عن إصلاح وضع مختل،أو حفز ذاكرة الناس ليواصلوا السير على نهج السلف. وكم وددت لو أن شيخنا الجليل "عبد الفتاح أبو غدة "رحمه الله خصص جانبا إضافيا في كتابه القيم " صفحات من صبر العلماء " ليعرض نتفا من أخبار أهل العلم و الفقه مع السفهاء، وما لقيه بعضهم من تضييق وتشنيع!

أما اليوم فقد أتاحت مبتكرات التواصل فضاء أرحب ليعيث فيه السفيه فسادا، وليبث سمومه متسلحا بحق التعبير و الرأي والسلطة الرابعة للإعلام.

نعم، أصبح لحزب السفهاء اليوم صحف مكتوبة، ومواقع إلكترونية،وقنوات فضائية تحمل المجتمعات الإنسانية طوعا أو كرها على التطبيع مع البذاءة و الفحش و الرخص القيمي. فغدت الفضائح وعورات البيوت،وأخص شؤون المرء مع أهله وجبة يومية، تتناقلها وسائل الاتصال،ويتجاوب معها الصغار و الكبار دون أدنى اعتبار للحدود الأخلاقية التي سنها الشارع الحكيم. بل وتمكن السفيه من جر بعض "العقلاء " إلى صفه لتلميع واجهته الإعلامية،وإقناع المتردد والمرتاب بأن السفه ضرورة اجتماعية لرتق الفجوة الحضارية بين عالمين!

سال مداد كثير لتطويق الإعلام بمنظومة أخلاقية تحد من شططه،ووُضعت خطوط حمراء لحريات التعبير والرأي خاصة بعد أن ارتخت قبضة القيم و المبادئ، لكن ذلك لم يحد من الهبوط المريع في الفكر والحس والذوق، وتضخيم أسباب الخلاف والخصومات، مادام لحزب السفهاء موطئ قدم في واجهات التخاطب الإنساني ومراكز القرار!

خاتم من حديد

الإسلام دين يسر و وسطية واعتدال. جملة تعاليم تنتصر للحد الوسط بين التفريط و الإفراط، وبين الشدة والرخاوة، وبين الانبساط و الانقباض. لكنه، للأسف، لا يزال يسرا حبيس الخطب المسبوكة والمواعظ البليغة، أما واقع الحال فيبدو مثقلا بالتقاليد الموروثة، والعادات الاجتماعية المجافية حتى للعقل والمنطق السليم.

إن رحلة شباب المسلمين اليوم لتحقيق مطلب الزواج لا تقل مكابدة وأهوالا ومطبات عسيرة عما لقيه المغامرون في أعالي البحار والأصقاع الخالية. بعضهم يُفني شبابه وصحته كي يحقق بنية استقبال تستجيب لمتطلبات زوجة الغد وأهلها وعشيرتها، بينما البعض الآخر يصرف النظر كلية عن فكرة الزواج التي تسلبه متعة حياة طليقة وحرة تعرض كل المباهج و بأبخس الأسعار، في حين آثرت البقية طرح فكرة الزواج للتداول في سوق الأسهم، و السعي لنيل صفقة مربحة تحقق عائدا شهريا، أو ثروة محترمة، أو منصبا غير مستحق! وبذلك أضحى الزواج مقاولة رائجة يحكمها قانون العرض والطلب،والشروط المنظمة للصفقات و العقود المالية،

بينما تدحرجت مبادئ العفة والإحصان، وتكثير سواد المسلمين لتستقر في بطون كتب السلف وأخبار الصالحين،يستعيدها الخطيب على منبره، أو الواعظ في مجلسه من باب التحسر على ما كان، ورثاء الأجنحة المهيضة التي ما عادت تحلق بنا في سماء الدين والقيم!

بعض الغيورين على صورة الزواج الإسلامي السعيد،وذوي النيات الحسنة الذين لا يخلو منهم زمان ولا مكان،بادروا إلى تنظيم زيجات جماعية، ودعم الشباب التواق إلى إحياء سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم في زمان القنبلة الجنسية، كما يسميها الشيخ محمد الغزالي رحمه الله.غير أن الإعلام الميال إلى توسيع دائرة الترفيه و الميوعة على حساب الثقافة النافعة التقط الإشارة، وانبرى لتحرير هذه المبادرة من بعدها القيمي والإنساني، لتندرج ضمن صناعة الفرجة والتسلية، والتي لا هم لأصحابها غير الرفع من نسب المشاهدة، وتحقيق الإثارة بأقل تكلفة.

ضمن هذا السياق يمكن الحديث عن برنامج ترفيهي تبثه القناة المغربية الأولى بعنوان " لالة العروسة". برنامج يتبارى من خلاله شباب مقبلون على الزواج للفوز بحفل عرس و رحلة استجمام. قد لا يكون التباري بحد ذاته نقيصة، لكنه في هذه الحالة يُزري بتلك

العلاقة المصونة، ويُسهم في ابتذالها وتحريفها عن مقاصدها لتصبح مضمارا للنجومية الزائفة. بل بلغ الأمر في المواسم الأخيرة أن تم إقحام الأم في فقرات المسابقة وتحويلها إلى فرس ثالث في الحلبة، وبذلك يحتدم التنافس، ويحظى البث المباشر بنسبة مشاهدة تحقق الجدوى الاقتصادية التي عليها مدار الأمر كله. إن مما يثير الشجن حقا أن تبلغ السطحية و الخواء القيمي حد إفراغ تلك الرابطة الإنسانية من مقاصدها الحقة لتكتسي بعدا ماديا مفزعا، يدفع بالشاب الغِر لأن يجعل من الأم و الحماة أضحوكة لملايين المشاهدين عبر العالم, ومادة للفرجة تعزز رصيد النقاط في تنافس يعكس السطوة الإعلامية على ما تبقى من أنفة و غيرة!

غير أنه، ومن باب الإنصاف و التجرد، ينبغي الإقرار بأن الإعلام ما كان له أن يسيء لآصرة الزواج لو لم يجد في التقاليد الموروثة، و العادات الاجتماعية ما يزكي طرحه. هذا الموروث الذي حرف مقصود الشرع، ليجعل من تلك العلاقة الإنسانية وسيلة للمباهاة وتعزيز الثروة والنفوذ! وبذلك سنحت الفرصة للإعلام كي يبالغ في الإساءة، ويجرد المرأة من قيمتها الإنسانية ليجعل مرادها من الزواج حاجات دنيوية كالسكن والملبس والأسفار والابتلاع المفرط لكل جديد في الأسواق!

إن الرسول صلى الله عليه وسلم لما أجاب الراغب في الزواج قائلا " التمس ولو خاتما من حديد" كان يدفع بهذه الآصرة إلى ما هو أبعد من المتاع الزائل. فليست قيمة الصداق أو نفقات الزفاف وما يخلفه من صدى في البلدة هي الغاية و المنتهى، بل ما ينشأ عن هذا الرباط من مودة و تعاون على البر و التقوى، وتفعيل لوظيفة الأسرة المسلمة باعتبارها النواة الضامنة لتماسك المجتمع واستمراريته. إن عقد الزواج الذي ينشأ بين المسلم و المسلمة، هو رابطة ولاية ووفاق يتحول بها المجتمع إلى خلية ناشطة لها منهج وغاية، أما المجتمع الوضيع، كما يوضح الشيخ محمد الغزالي في كتابه (قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة و الوافدة) فهو الذي يفهم الزواج على أنه عقد انتفاع بجسد، أو يعرفه بأنه امتلاك بضع بثمن، أو يراه شركة بين رجل تحول إلى ضابط برتبة مشير لديه امرأة برتبة خفير! فأين الود والتراحم و الشرف؟؟

وليس الأمر في زماننا وقفا على الإعلام وحده، بل إن المقاربة الحقوقية، ورزمة القوانين التي حرصت على توفير ضمانات للزوجة و الأبناء، وتفعيل مسطرة حازمة عند الإخلال بمتطلبات البيت و الأسرة،قد أسهمت في تبديد جو الثقة وإثارة المخاوف،مما

كرس عزوفا ملحوظا عن الزواج، وتسويقا للذرائع التي تطيل أمد العزوبة، وتعفي الشباب من الإقدام على مغامرة محفوفة بالمخاطر!

لاشك أن تحرير الزواج من قبضة الإعلام المسيطر على فضائنا الثقافي والاجتماعي مدخل حيوي لاستعادة الثقة في الدور السامي الذي تحققه آصرة مبنية على المساواة الحقة و الشورى، وتنشئة الجيل الصالح.فليس البعد المادي وحده هو المتحكم في تدبير علاقة أضفى عليها الرحمن صفات المودة و السكون والرحمة، وليست الأنانية والتباهي وحب الظهور مقاصد تبنى عليها البيوت، وتنهض عليها الحياة المشتركة بين طرفين.يقول **الأصمعي** في وصية لا تخلو من جدة وطرافة لمن يرغب في الزواج: (إذا هممت في الزواج وأخذت في الاختيار فإياك أن يغلبك هواك على عقلك، فتؤثر بريق الجمال العاري من الكمال على كريم الخلال، وشريف الخصال. فأنت إنما تختار شريكة العمر،وعشيرة الدهر، ولست تختار اليوم لتتحلل غدا، وإذن فمن الخير تغليب العقل على الهوى، ومن صواب الرأي استعمال الأناة و التؤدة إلى أن تظفر بذات الدين و الخُلق فتؤثرها بالاختيار على غيرها من سائر النساء. وفي ذلك السعادة الزوجية التي لا تكلفك من أمرها عسرا، ولا تطلب مالا قدرة لك عليه. ترضى بالمقسوم وتكون معك على

الأيام، لا تتشكى ولا تتسخط،إن وجدت حمدت، و إن لم تجد صبرت.تملأ دارها أمنا و رضى واطمئنانا. زوجها منها في يسر ومسرة، وولدها معها في خير. هي خير النساء جميعا).

دجال الثورة

كائن خفيف الوزن، لا تحتمل حماقته وخفته. قد يكون نكرة في الأحوال العادية، ولا اعتبار له في أوساط المثقفين والساسة وأهل الرأي، لكنه يبادر فور اندلاع ثورة أو احتجاج لقيادة الجمع الثائر وتصويب خطاه!

لا يلزمه إطار ثقافي يتحرك داخله للتعبير عن نفسه، ولا تعنيه رصانة الفكرة أو عمق الخطاب، لأن المنسوب الفكري للجماهير لحظة الغضب والعنف ينخفض ويتراجع،فلا تحتمل المحاججة العقلية بقدر ما تستجيب للتهييج و إطلاق الغرائز. إنه دجال الثورة الذي لا يعنيه سوى جني المكاسب قبل أن تفيق الجماهير من سكرة الحدة والانفعال، ولا يريد منك سوى أن تطفئ سراج عقلك وتتبعه!

بداية لا بد من الإشارة إلى الفروق الواضحة بين دجال الثورة والقيادة الكاريزمية التي تعمد إلى تغذية أسباب النزاع الداخلي بناء على اختلاف الآراء والمواقف مع من هم في سدة الحكم وصنع القرار. ذلك أن هذه القيادات تملك شرعية الحضور في المشهد السياسي بناء على مواقفها تجاه صناع القرار، وتعرضها لأشكال

الإيذاء والتضييق خاصة في النظم القمعية، ما يحقق لها شعبية واصطفافا جماهيريا يزكي حضورها عند حدوث توترات سياسية. أما دجال الثورة فلا يملك من هذه المواصفات ما يتيح له الحضور في المشهد العام قبل تفجر البركان.

يحيلنا المفكر الفرنسي **غوستاف لوبون** في كتابه **(الآراء والمعتقدات)** على بعض العوامل التي تُكسب النفسية الفردية صفة الجماعة، و تهيء الأرضية المناسبة لبروز دجال الثورة على نحو غير مستساغ. فالعدوى النفسية وسط الجموع الثائرة تتيح انتشار أقواله وخطبه دون الالتفات لقيمتها العقلية، لأنه خطاب موجه للاشعور ولا دخل للعقل فيه. بل إن العدوى قد تكون مؤثرة حتى على بعض أرباب العلم والقلم الذين ينحازون، كما يقول لوبون إلى أكثر المعتقدات والآراء و المواقف شؤما ومخالفة للصواب! أما الإعلام، كعامل ثان، فلا يقل ضراوة في التأثير وتزكية حتى المخبول، مادام الإيقاع الثوري لا يسمح بغير التأليب والتجييش، والتشكيل الفوري للقناعات اللازمة. لذا سرعان ما يتحول دجال الثورة إلى قبلة للمنابر الإعلامية، وصانع للحدث الذي يجري تضخيمه و تلميعه. ولعل المواكبة الإعلامية لما بات يُعرف بالربيع العربي قد سلطت الضوء على دور بعض وسائل الإعلام في

تنصيب دجالين للثورة بغية خفض سقف المطالب الاجتماعية، والتلاعب بمطامح وآمال الجمع الثائر.

تثور الشعوب لتصحيح المسار ورفع الظلم، لكن غياب مشروع حضاري يمكن الالتفاف حوله يلقي بمرحلة ما بعد الثورة في كنف المجهول. نعم، يكون المد الثوري هادرا وكاسحا إلى حين فرار الطاغية أو حل الحكومة الضعيفة وبرلمانها المهزوز، بعدها يشرع الثائرون في البحث عمن يواصل كنس المشهد وتأثيثه بخطاب جديد و رؤية تحقق أهداف الثورة. وغالبا ما يكون البديل إما قيادة حظيت بالثقة قبل الحراك، وإما ذوات هي أقرب إلى النبت الشيطاني، تماهت مع السخط العارم وادعت أنها بنت شرعية للثورة وبإمكانها الاستجابة لكل التطلعات ودفن العاهد البائد إلى غير رجعة. وفي كلتا الحالتين يُطرح السؤال الممض حول عجز الشعوب عن استكمال ثورتها، ووقوعها في فخ دجال الثورة الذي لن يتورع عن إجهاض مسلسل التحرر والانعتاق من الظلم والاستبداد والجوع.

يقدم **هاشم صالح**[١٥] تفسيرا لهذا النكوص مفاده أن الإنسان المستعبد لردح طويل من الزمن يختل توازنه إذا ما أعطيته الحرية

---

١٥ هاشم صالح: الانتفاضات العربية في ضوء فلسفة التاريخ.دار الساقي ٢٠١٣.ص١٣٧

فجأة، ويلزمه وقت طويل ليستعيد هذا التوازن ويستسيغ طعم الحرية. ينضاف إلى ذلك أن كون الحرية مسؤولية و العبودية راحة يحمله على أن يلقي بالمسؤولية على كاهل الأب أو الشيخ أو الزعيم – أو حتى الدجال كما أسميته- الذي يفكر نيابة عنه.

أما **الدكتور نبيل راغب** [١٦] فيرد الأمر إلى الالتباس الحاصل في العقل العربي بين مصطلحي الثورة و التنمية، وتوهم الشعوب – العربية تحديدا – أن الثورة خطوة أولى في مسلسل تنمية تستكمله النخب البديلة. بيد أن مالم يدركه هذا العقل الذي عانى من غيبوبة مزمنة هو أن التنمية مصطلح علمي اقتصادي ومنهجي يعتمد على دراسات الجدوى و الحساب الدقيق لا على العوامل الثورية. وأن الثورة التي تحدث تغييرا مفاجئا في الأوضاع السياسية والاجتماعية لا يمكنها أن تحقق التنمية، نظرا لارتباطها بمقدمات التحول التاريخي من مجتمع تقليدي بتكويناته ونظمه و عصبياته إلى مجتمع حديث يُدار وفق آليات المجتمع المدني القابل للتطور إلى نظام ديموقراطي.

١٦د.نبيل راغب: الغيبوبة العربية. دار غريب ٢٠٠٦.ص ٢٨٣

من أين يأتي دجال الثورة، أو بالأحرى ما هي البيئة التي تشكلت لديه فيها محفزات الانضمام للجماعة الساخطة المتذمرة، و ادعاء تمثيل المقهورين؟

سؤال حاول **كرين برنتون**[١٧] الإجابة عنه عبر استخلاص الأنماط الثورية من التراجم المتاحة لعدد من الثوريين، سواء كانوا زعماء أو أفرادا أقل شأنا. وباستعراض النماذج والأمثلة التي ساقها الباحث يمكن الوقوف على عدد من المنافذ قد يمرق منها دجال الثورة ليسرق الشعلة ويحقق أهدافه الخاصة.

فقد يكون دجال الثورة من طبقة بارزة في المجتمع لكنه يشترك في الثورة لسبب خسيس هو الحفاظ على ثروته ومكانته، والحصول على نفوذ سياسي يستعصي عليه نيله في الأوقات العادية. وهذا النمط لا يؤمن في العادة بالأفكار المجردة التي تدغدغ مشاعر الثوريين كالعدالة و المساواة وغيرها.

وقد يكون من الفاشلين في تحقيق طموحه، ولا يملك من المواهب والألقاب الأكاديمية ما يتيح له التموقع في دائرة الضوء، فيتولد لديه حقد على النماذج الأكثر شعبية وحضورا في المشهد العام.

١٧كرين برنتون: دراسات تحليلية للثورات.الهيئة العامة لقصور الثقافة.مصر ٢٠١٠.ص١١٣ وما بعدها

وقد يكون من المنحرفين ذوي الميول الإجرامية فيجد في الثورة مجالا رحبا لارتكاب أبشع الجرائم باسمها. وكم من مذابح ومآسي ارتكبت باسم الثورة، واتخذت فيها القسوة مبدأ وشعار دون اكتراث بالتداعيات اللاحقة. ولو أنها ارتكبت في مجتمع مستقر لما كان الثوري سوى مظهر زائف للمجرم و السفاح.

وقد يكون من هواة الجدال الفظ والمنازعات والشذوذ عن القاعدة في كل شيء. غير أن جداله المستمر لا ينم عن فكر مخالف للسائد بقدر ما يعكس حقدا ومرارة ورغبة مجنونة في التحطيم تجد ملاذها عند اندلاع ثورة.

سواء كان من الفاشلين في الأوقات العادية، أو من المخبولين والمنحرفين الذين يستعصي فهمهم دون مساعدة من علم الإجرام وعلم نفس الشواذ، أو حتى من رجال العصابات وممثلي القسوة الإنسانية، يظل دجال الثورة تجليا لحقيقة تعصف بالبعد الرومانسي والمثالي الذي لا يزال جم غفير من الناس يصدقه. حقيقة أن الثورة ليست بالضرورة تكتلا من الطيبين والعقلاء يتصدى للطغمة الفاسدة!

درس القناعة

يجهد الخطاب الإسلامي المعاصر في الدعوة إلى استعادة و تثبيت قيم إسلامية أوشك وميضها أن يخبو بفعل نزعة مادية بغيضة. إلا أن هذا الجهد، ومهما حسنت نوايا القائمين عليه،تشوبه تعثرات عديدة تحد من تمثله على مستوى السلوك و الممارسة، أو إدماجه في البناء التربوي للأسرة المسلمة.ولعل أهم هذه العثرات ما ألمح إليه الأستاذ محمد قطب في كتابه " كيف ندعو الناس؟ " بشأن الظرفية الخاصة التي تمر بها الأمة الإسلامية اليوم، والتي تلقي على كاهل الدعاة عبئا إضافيا يفرض تجديد الأساس. فالفساد الذي ألم بالأمة اليوم ليس فساد سلوك يُجدي معه الترميم والإصلاح، بل هو فساد في المفاهيم ذاتها، وانحراف خطير يتخفى تحت قشرة التقاليد الخادعة!

تندرج القناعة ضمن هذه القيم المتخلى عنها تحت ضغط اللهاث العالمي لإشباع الرغبات و تكديس المنتجات.فالإنسان عموما يتوق إلى نوع أرقى من المعيشة و حظ أوفر من الرفاهية ,غير أنه اليوم وقع فريسة عادات استهلاكية موجهة، تتضافر قوى عديدة لتثبيتها وإكسابها بعدا رمزيا يوحي بوثوق صلتها بالهوية والمكانة

الاجتماعية.ولم يعد الأمر وقفا على التلبية المفرطة للرغبات، بل انقاد الفرد طوعا أو كرها للإنفاق التنافسي الذي يغذيه التفاخر و التباهي، والإيهام باختراق نادي الأثرياء! وضع كهذا يقود، برأي الباحثة الأمريكية "**جوليت شور**" إلى تنامي آفات اجتماعية خطيرة كارتفاع معدل جرائم السرقة و العنف، وشيوع مظاهر الاستياء والتشاؤم خصوصا لدى أفراد الطبقة المتوسطة.

و إذا كانت الباحثة تخلص إلى صعوبة التحكم في نزعة الاستهلاك الجبري لأسباب من بينها: تآكل القيود الدينية والأخلاقية على الاستهلاك، والجهد الكبير الذي يبذله دهاقنة الانتاج والإعلان والتسويق لجعل بيئة الإنفاق أكثر إغراء وجاذبية [١٨]، إلا أن في منظومة القيم الإسلامية ما يسمح بهذا التحكم، ويعيد المسلم المعاصر إلى جادة القناعة إذا ما تحقق التمرير الفاعل للمفاهيم و السلوكيات البديلة.

يرسم أبو حامد الغزالي في "الإحياء" خارطة طريق لترسيخ القناعة كأسلوب للحياة و تدبير المعاش. فمن أراد عز القناعة برأيه لا بد له من خمسة أمور أولها أن يوطن نفسه وعياله على الإجمال

١٨روجر روزنبلات: ثقافة الاستهلاك.ط ١ القاهرة ٢٠١٢

في الطلب والاقتصاد في المعيشة، وأن يستحضر الرفق في الإنفاق كما يستحضره في بقية الأمور.

وثانيها ألا يتطلع للمستقبل بخوف واضطراب إذا تيسر له في الحال ما يكفيه.وهذا يعينه على قصر الأمل و التحقق بأن رزقه الذي قُدر له لا تجلبه شدة الحرص بل اليقين بوعد الله تعالى. ورد كيد الشيطان الذي يعده بالفقر ويحمله على بذل عمره في غير طاعة الله.

وثالثها أن يؤثر عز النفس والاستغناء عن الخلق على شهوة البطن.ففي القناعة حرية تصونه من ذل الاحتياج للناس، و تكسبه قدرة على متابعة الحق دون خوف أو مداهنة.

أما رابعها أن مما يعينه على القناعة والرضى بقسمة المعاش أن يتأمل أحوال المتنعمين من اليهود و النصارى و الحمقى ممن لا دين لهم، ثم ينظر في أحوال الأنبياء و الأولياء و يخير عقله بين مشابهة الأراذل أو الاقتداء بأعز أصناف الخلق.

وينهض خامسها على التحذير من مغبة الولاء للمال،وانشغال البال بالآفات التي تلحقه من سرقة ونهب وضياع.فالشيطان حريص على

أن يصرف نظر المسلم في الدنيا إلى من فوقه، وفي الدين إلى من دونه حتى تتعلق نفسه بالتنعم، وتفتر عن طلب الآخرة [١٩].

وفي سياق حديثه عن العدالة الاقتصادية وتوزيع الثروة في الإسلام , يضيف الشيخ البهي الخولي رحمه الله قاعدة سادسة توفر، إلى جانب ما أورده الغزالي، إطارا تربويا يُمكن الداعية والمربي من تثبيت درس القناعة فهما وممارسة وفق صياغة تلائم روح العصر. إذ ينطلق من التأكيد على أن كلا من الفطرة و الشرع أقرا بالحد الوسط الذي يضبط النزعة الاستهلاكية للمسلم.فالفطرة السليمة تحمل صاحبها على الوقوف عند الكفاية الضرورية، أي الحد الذي يطلبه البدن بلا زيادة أو نقص. فما نقص عن تلك الكفاية فهو تفريط يسلم البدن للوهن والضعف، وما زاد عنها فهو إخلال بطبيعة الجسم الذي يطلب ما يحفظ توازنه. أما الشرع فيعتبر الحد الوسط هو أقصى حد تحتفظ فيه الذات العليا بمقوماتها، فإذا جاوزه الإنسان جاوزه إلى الشهوات التي تعصف بإنسانيته، فيتصرف في الأمور بتقويم شيطاني لا بتقويم إنساني[٢٠]. وبهذا تصبح القناعة ثمرة لزوم الإنسان للحد الوسط في علاقته بما يملك وما ينفق.

١٩أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين ج٣.سماراغ أندونيسيا.د.ت

٢٠البهي الخولي: الثروة في الإسلام.دار القلم ط٤. الكويت ١٩٨٢

إن الواقع الاقتصادي المرعب الذي نعيشه يدفع بالرغبات والنزوات لتصبح الموجه الأساسي لسلوك الإنسان في العصر الحديث، بل ويجعلها في الدرجة الأولى من سلم القيم. أمام وضع كهذا نخشى بالفعل أن ينطبق علينا توصيف إيريك فروم للإنسان المستهلك، ذاك الإنسان الخامل ,قليل القيمة، الذي يقاوم شعوره بالفراغ والقلق والاحباط بمزيد من الاستهلاك والتبضع.

إن الأمة الإسلامية أحوج ما تكون اليوم إلى استعادة قيمها الإيمانية العليا، و التصدي لمبررات الضآلة و الانحلال التي تغذي نزوع النفس البشرية لمغريات الهبوط.ولن يتأتى ذلك إلا من خلال صياغة جادة و متكاملة لقوالب التهذيب الأخلاقي، وحفز متواصل على اقتحام العقبة!

سئمت تكاليف الزواج ومن يعش..

معذرة لزهير بن أبي سلمى، فتكاليف الحياة مقدور عليها لو تيسر للعازب أن يقتسم خبزه اليومي مع زوجة صالحة تعينه على الزمان، وأهل زوجة يرفقون به فلا يُحملونه من الأمر مالا يطيق. لكننا اليوم بصدد تفتيت متأن للعلاقات الإنسانية، وإماتة بطيئة للأواصر التي تنفخ فيها الشرائع روح السمو والرفعة، ثم لا تلبث "تكاليف الحياة" أن تزري بها، وتجعلها رهينة المكسب والعائد والربح!

لا أخفي ضجري من الحديث المتكرر عن عزوف الشباب عن الزواج، يبدو الأمر كأن السبل ممهدة، والخيارات متاحة، والمجتمع يوطئ أكنافه لمن يرغب في العفاف، إلا أن الشباب ينكر الجميل بإصراره على تعطيل مسيرة النمو! هذا خطاب مجانب للصواب تماما، فالأصل أن المسلم طيب لا يرضى لنفسه وحياته إلا طيبا، وأن ما تشربه في طفولته من آداب المعاملة مع الوالدين, و رد الجميل للأمومة في حنوها وعطفها، والأبوة في كدها و بذلها يستحثانه لأن يسير على النهج، ويُخلف الذرية التي تُنيله من الحظوة و الاحترام ما ناله والداه. لا غبار على هذا المعطى في

نفس كل شاب إلا من حُرم مقتضيات السعادة الأبدية. إن أسباب العزوف، برأيي المتواضع، تنشأ من المجتمع ذاته..

من التربية التي انفصلت فيها الفكرة عن السلوك، فأضحت خشية الله وطاعة رسوله نصوصا تُتلى، أما المعتبر واقعا فهو خشية الناس، والخوف من كلام الناس، وتجميل القبح طلبا لثناء الناس.

ومن المسار التعليمي الذي يستهلك نصف متوسط عمر الشاب، ثم يُلقى به في مضمار الحياة لاهثا خلف وظيفة أو فرصة عمل. وما إن يسترد أنفاسه متوهما أن حبال الشقاء لانت وارتخت حول رقبته، حتى تفجأه "تكاليف الزواج "بما لا طاقة له به.

ومن سلطة العادات و التقاليد المذمومة التي تكبل الإرادة، وتبدد الأمل و فرص العيش في طمأنينة. عادات تزج بمستقبل الشاب و الصبية في أتون الضياع للإبقاء عليها متوهجة!

ومن رزنامة القوانين التي تحيط الزواج بأسلاك شائكة. صحيح أن بعضها يضمن حماية العش الأسري، لكن البعض الآخر يثير المخاوف، ويضفي على الزواج سمة المغامرة المحفوفة بالمخاطر.

ومن أسباب الحياة المادية التي يمعن الاقتصاد الجشع، والسياسة العرجاء في تضييق خناقها، فلا تتمكن غير القلة القليلة من تحصيلها طلبا لعيش رغيد.

لا يكف الشباب المقبل على الزواج،أو العازف عنه، عن إبداء تذمره وامتعاضه من ارتفاع مصاريفه، خاصة المَهر الذي لم يعد تكريما للمرأة، بل صفقة لا تشذ عن مثيلاتها في عالم المال والتجارة. فأهلية الشاب تقاس اليوم لدى أغلب الأسر بالثروة أو الراتب الشهري، وبما يجنيه أو يملكه. في حين تراجعت باقي المقاييس أمام الفائدة التي ستجنيها الأسرة، أو على الأقل أمام ضمانات استمرار العلاقة وحفظ حقوق الزوجة. والمثير في الأمر أن العودة إلى الصيغة الثمنية المادية للمَهر تنسف المبادئ والأحكام التي أرساها الإسلام لتكريم المرأة، والارتقاء بوضعها الاجتماعي، كما تنسف الجهد التاريخي الذي بذلته النساء لاسترجاع حقوقهن، ونبذ الصورة النمطية التي لحقت بهن منذ عصر الجمود و التقليد. فالمَهر الذي كان حتى الأمس القريب حقا يقدمه الزوج نظير المعاشرة وتكوين أسرة، والذي ارتقى على يد نماذج من السلف الصالح إلى مرتبة أعمال البر حين جعلت المرأة مهرها اعتناق الزوج للإسلام، أو تعليمها بضع سور من القرآن، صار اليوم ثمنا

لسلعة تباع وتُشترى، واتفاقية شراكة متعددة الأطراف، يُقدر فيها السعر بمقدار ما تتمتع به المرأة من جمال وحسب، أو مردودية إنتاجية في حالة المرأة العاملة خارج البيت!

في دراسة بعنوان " أزمة الزواج في سوريا " يخلص بوعلي ياسين، بعد بحث ميداني وقراءة للمعطيات الإحصائية، إلى جملة أسباب وعوامل تقف وراء ارتفاع التكلفة الاجتماعية للزواج. ورغم مضي أربعة عقود عن صدورها، لا تزال نفس العوامل مؤثرة على نحو واضح، بل هي اليوم قاسم مشترك بين المجتمعات العربية دون استثناء! ويكفي التصفح العابر لوريقات تلك الدراسة لنكتشف الحضور القوي لسلطة الأهل، بل بالأحرى تسلطهم، في توجيه دفة الزواج بشكل يخدم مصلحة الطرف الثالث في علاقة يُفترض أنها "زوجية".

يتمثل العامل الأول في الموقع الطبقي للأسرة، حيث يفرض الانتماء لطبقة معينة زيادة التكلفة المالية للزواج لأجل استبعاد مرشحين من طبقة أدنى. ويرتفع المهر وباقي نفقات الزواج تبعا لموقع الزوجين على درجات الهرم الطبقي في المجتمع، ليكتسي صبغة خرافية في بعض الأحيان.

أما العامل الثاني فمرتبط بالنزعة الاستهلاكية للأسرة، والفتاة تحديدا، والتي تجعل من الكلفة المالية للزواج مناسبة لسداد فواتير تكديس وابتلاع كم هائل من المقتنيات، وإرواء هوس مفرط بالتملك وتحقيق رغبة الصعود الطبقي التي تراود أسرا عديدة.

بينما لدى أسر أخرى يكون غلاء المَهر وسيلة لصد الرجل واستبعاده، خوفا على الثروة و المكانة.

في حين يتعلق العامل الأخير بأوهام الحب و الزواج أو الفهم الخاطئ للحياة، حيث تكون الكلفة المرتفعة وسيلة لتأجيل طلب الزواج إلى حين العثور على "فتى الأحلام" أو الانتهاء من التحصيل العلمي أوالمهني. وهي بالطبع مغامرة خطرة في مجتمع يكافئ الاستعلاء على طالبي الزواج أو رفضهم بالعنوسة، والاستبعاد الاجتماعي من القائمة! (أزمة المرأة في المجتمع الذكوري العربي.ص٩-٧٣).

تستحث الدنيا طالبيها على التجرد من إنسانيتهم لقاء الاغتراف من ملذاتها. ذاك هو ملخص رحلة العذاب التي قاستها المرأة في كنف الأسرة..

شيئا يباع مقابل فرو أو رؤوس من الماشية أو حفنة شعير..

وشيئا يُدفع مقابل إبرام الصلح بين عشائر متناحرة.

وشيئا يُمنح دون مقابل للتزلف أو الاسترضاء.

ثم جاء الدين الخاتم ليسترد كيانها، وينفث في روعه آيات التكريم والتمجيد، وصيانة الحقوق المغتصبة. بيد أن نفوسا خلب لُبها بريق الأبيض والأصفر، فأبت إلا أن تنزع لحاء الشرف، وتلغي مقاييس المودة والتفاهم والميل العفوي المتبادل، لتبعث النخاس من مرقده!

لما خضع المَهر مجددا للمساومة هاجت قريحة شاعر فنظم ما يلي:

قالوا الكفاءة ستة فأجبتهم

قد كان ذلك في الزمان الأقدم

أما بنو هذا الزمان فإنهم

لا يعرفون سوى يسار الدرهم.

سووا صفوفكم!

يكفي أن يهمس بها الإمام لتنتظم أفواج المصلين طوعا، ويلين المسلم بيد أخيه حتى تحاذي كل قدم أختها، ويتحول الجمع إلى أنموذج في الانضباط والانسجام، كي يتحقق المظهر الذي أثنى عليه الله تعالى في كتابه، وحثت السنة النبوية على لزومه.

لكن ما إن يتحلل المسلم من صلاته بالتسليم حتى يستعيد فوضاه، وتدافعه اليومي في الأسواق العامة والمصالح الإدارية ومواقف الأتوبيس. فترى عجبا، وتلمح انفصام العروة بين بيوت الله وطرقات العباد، وبين المنهج كما حدده الشارع الحكيم والواقع الذي يضج أنانية وإيثارا مفرطا للذات.

تحيل مادة [ص ف ف] في القرآن الكريم على معاني الانتظام والالتزام، والاستعداد لتلقي الأوامر، يقول الشيخ **متولي الشعراوي**، فسحرة فرعون تبادلوا النصيحة بوحدة الصف لما فيه من الهيبة وإدخال الروع على قلب خصمهم، وذلك في قوله تعالى: (فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا) طه-٦٤.

ويكون العرض على الله تعالى صفوفا يوم القيامة فيقول سبحانه:(وعرضوا على ربك صفا) الكهف- ٤٨، أي كما يستعرض القائد جنوده بترتيب لا يستطيع أحد فيه التخفي، ولا فرار له منه.

ويقول عز وجل عن ملائكته: (وإنا لنحن الصافون) الصافات- ١٦٥.أي نقف في انضباط بحيث لا يتعالى أحد على أحد رهبة ممن نحن مصفوفون أمامه.

وفي الصلاة كما في القتال يحب الله تعالى الاصطفاف دلالة على الطاعة والسكون، والتزام الأوامر.

ما الذي حدث إذن حتى صارت الفوضى اليومية أشد تعبير على حفظ الحروف وتضييع الحدود؟

ولماذا يمضي أغلب المسلمين في تلاوتهم للقرآن الكريم، غير عابئين بأنهم المكلفون شرعا بمضامين خطابه؟

إن جزءا من المشكلة مرده بالأساس إلى غياب عنصر التربية الخلقية في تنشئة الطفل منذ الصغر. بالمقابل نجد اهتماما كبيرا بالقدرات العقلية، من حفظ وشحن بالمعلومات، وتنمية للذاكرة والمهارات التي تخدم مساره المستقبلي. فتتولد حالة من الانفصام الواضح بين المعرفة وتطبيقاتها العملية، بحيث لا يبدي المسلم

حرجا في لزوم النظام داخل الفصل الدراسي، وتبني الفوضى خارجه. ولا يمكن تجاوز هذا الوضع إلا بتحويل ما هو ظاهر إلى باطن، يقول الدكتور **حسن الشرقاوي** مؤلف كتاب(التربية النفسية في المنهج الإسلامي)، بمعنى آخر تحويل المظاهر الخارجية إلى عقيدة إيمانية من خلال رياضة النفس والتدرب على مخالفتها، وغرس القيم باعتماد القدوة الحسنة والممارسة الواقعية.

أما الجزء الثاني من المشكلة فيعبر عنه الفصل الحاد بين الأنا والآخر بشكل يهدم مقتضيات الأخوة الإيمانية، ويعلي من أنانية الفرد إزاء متطلبات الجماعة التي ينتسب إليها. ولاشك أن لمنظومة التغريب يدا في هذا الوضع من خلال إكساب مفاهيم القوة والطموح والتنافس دلالات متعارضة مع التصور الإسلامي، حتى صارت القوة رديفا للعنف، والمنافسة مبررا للفوضى وكسر الأعناق، وامتهان كرامة الآخرين.

في حين يعكس الجزء الأخير حالة استسلام غريبة، و تطبيع مع الوضع السائد. كأن قدر المسلم أن يحيا في فوضى مستمرة وزحام أبدي. وتطفو إلى السطح مقولات وانطباعات، بل حتى " قفشات " ترسم صورة سلبية لهذا الكائن الذي يعاني من متلازمة التخلف، ويقضي سحابة يومه في التدافع والتهافت، وبذل ماء وجهه لقاء أي

شيء. و بذلك تصير الفوضى تجليا لعدم التوافق بين حركة الإنسان والبرنامج الحضاري الذي سطره الدين تحت شعار "الاستخلاف".

إن تسوية الصفوف، داخل المسجد أو خارجه، هي إحدى تعبيرات التوازن الذي يعتمده الإسلام منطلقا لإنجاح تجربة الإنسان الفردية والجماعية في العالم. حيث يشكل النظام صورة من صور التكامل بين قيم الروح و قيم المادة. وكلما انحرف الإنسان عنه إلا ووقع ضحية تمزق نفسي تنعكس آثاره على النشاط الاجتماعي، فيعم الإحساس بالعبثية و اللاجدوى. وهنا تبدو وحدة الصف قرينةَ التغيير الذي يبدأ من داخل النفس قبل أن تبرز ثماره على السطح. ولن يتأتى ذلك إلا بتقديم المبادئ على الوسائل، واستعادة أصالتنا العميقة.

لقد انقلبت الموازين في غزوة أحد حين خالف الرماة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرقوا الصف الإيماني سعيا وراء الغنيمة.ولعله المشهد الذي يتكرر كل يوم على امتداد العالم الإسلامي، ثم نرفع عقيرتنا بالشكوى من آثار الهزيمة النفسية والتبعية الحضارية، غير آبهين بالرد الإلهي الذي ذهلت عنه البصائر: (قل هو من عند أنفسكم)آل عمران-١٦٥

شوق الصالحين

لا يتحقق الشوق إلى الله إلا لمن كان له قلب؛ ذلك أن القلب هو مستودع المحبة، ومن أكمامها تنبعث آيات الشوق إلى الله وعلاماته، سواء كانت أذكارا لا تفتر، أو أدعية وابتهالات يطرب لها الوجدان، أو ركعات في جوف الليل والناس نيام!

الشوق إلى الله درجة رفيعة، يقول الإمام **ابن رجب الحنبلي**، تنشأ عن قوة محبة الله عز وجل. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسأل ربه هذه الدرجة بقوله:" **وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك**" –أخرجه أحمد(٤-٢٦٤) من حديث عمار بن ياسر. غير أنها مرتبة مشروطة بمعرفة الله تعالى؛ تلك المعرفة التي يتفتح لها القلب، وتستنير بها البصيرة. فترى العطاء في البلاء، وتمد من الروح والمال والمتاع الزائل جسرا إلى مرضاة ربها.

لما حضرت الوفاة **بلال بن رباح** رضي الله عنه قال: " غدا نلقى الأحبة، محمدا وحزبه" قالت امرأته: يا ويلاه، فقال: وافرحاه! تلك هي صورة الشوق كما يعتمل في نفس المؤمن، فيرى في الموت

سفرا إلى المحبوب، ويجد في مفارقة الدنيا فكاكا من سجن البدن حتى تحلق الروح في ملكوت الجليل سبحانه.

إن الحامل على الشوق هو المحبة، يقول **ابن القيم**، بل إن الشوق بعض ثمراتها التي تشمل حمد المحبوب والرضا عنه، والتنعم بذكره والأنس إليه. وكلما قويت المحبة ازداد الشوق، فلا يسكن قلب المشتاق إلا في الدار الآخرة حيث تتحقق الرؤية التي وعد الله بها عباده.

اشتاق **نبي الله يوسف** عليه السلام إلى ربه، فجعل علامة الشوق حب الموت مع الراحة و العافية، كما قال **أبو عثمان الحيري**. وتأمل قوله تعالى:(رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة، توفني مسلما وألحقني بالصالحين) – يوسف:الآية١٠١-. فإنه ألقي في الجب فلم يقل (توفني)، وأدخل السجن ولم يقل (توفني)، حتى إذا تم له الأمر والنعمة قال (توفني مسلما).

ولما حضرت الوفاة **معاذ بن جبل** رضي الله عنه، قال لمن حوله: أنظروا أصبحنا؟, فقيل: لم نصبح. فلما قيل له: قد أصبحت قال: أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار. مرحبا بالموت مرحبا. اللهم

إنك تعلم أني كنت أخافك، فأنا اليوم أرجوك. اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكري -حفْر- الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالرُكب عند حِلَق الذكر.

تلك حال المشتاق الذي يجعل من الدنيا مطية للآخرة، ويرى في الساعات والأيام مضمارا للعبادة والذكر، وطلب المعرفة التي تغذي شوقه إلى لقاء ربه.

وإذا كانت معرفة الله ومحبته خطوتان في طريق المشتاق، فإن حصول لذة الشوق لا يكتمل إلا بعلو الهمة. يقول **ابن القيم**: ليس للعابد مستراح إلا تحت شجرة طوبى، ولا للمحب قرار إلا يوم المزيد. وهذا المعنى متضمن في قوله تعالى: (وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين) -البقرة: ٢٢٣- ويستلزم علوُّ الهمة مجاهدةَ النفس، وتقييد ركضها خلف الشهوات والمعاصي، ثم مكابدة ألوان الطاعات حتى يجد العبد لذتها، فيشتغل قلبه ولسانه وجوارحه بكل ما يوصله إلى المحبوب الأعلى. ويرى **ابن القيم** أن للأمر صلة بطبيعة الخلق البشري، حيث تُولد المجاهدة خفة في الروح تجدد شوقها للعالم العلوي. يقول في كتابه (**الفوائد**):" وبالجملة، فكلما خف البدن لطُفت الروح، وخفت

وطلبت عالمها العلوي. وكلما ثقُل وأخلد إلى الشهوات والراحة، ثقلت الروح وهبطت من عالمها، وصارت أرضية سفلية. فترى الرجل روحه في الرفيق الأعلى و بدنه عندك.. وآخر واقف في الخدمة ببدنه وروحه في السُفُل تجول حول الحش!".

عالَم أبي ذر

الصحابة..

تلك الجماعة الملتفة حول الدعوة في مهدها..

تلك القامات التي ضربت أروع أمثلة التضحية و الفداء في سبيل ما آمنت به، ومن آمنت بنبوته!

تلك الأسماء التي مهرت بسيرتها ومواقفها سجل الإنسانية، وهيأت للخلَف ممشى إلى عالم مثالي لم يشهد التاريخ نظيرا له، تقف اليوم حائرة في المفترق بين خطيب أو داعية يُخرجه من طور البشرية حين يجعله أيقونة هلامية معلقة بين السماء والأرض، فيوصد دون سابق إصرار باب الاقتداء، وباحث مولع بالنظريات و المقاربات الفلسفية والتاريخية التي تجرد الصحابي من أوسمة الوحي وبركات الصحبة، لتضعه في مصاف الأتباع المشدودين بخيط الولاء إلى زعيم! وفي المفترق ضاعت على ناشئتنا محطة هامة في مسارهم التربوي، يقتبسون منها شحنة روحية وحيوية دافقة يسهل بفضلها تشرب المبادئ الإسلامية.

إن لكل صحابي و صحابية عالمه الخاص، ورحلته المتفردة في بلوغ الهداية والامتثال الطوعي، والإقبال الشغوف على مبادئ جليلة صاغها الوحي في كلمات، وترجمها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى خلق وهدي وعزم لا يلين. و ما أعنيه بالعالم الخاص هو ذاك النسق المشتمل على الخط الفكري للصحابي قبل إسلامه، والاختبارات النفسية التي حررت شخصيته من انفعالات الجاهلية ومقاييسها في السلوك والحكم و ردود الفعل، ثم سجل إنجازاته ومواقفه التي أفرزها المخاض الجليل للرسالة المحمدية. وهذا العالم الخاص ينحو في الحقيقة منحى القراءة المتجددة للسياق الاجتماعي، و الاستعدادات الذاتية التي حملت ذاك الجم الغفير على الالتفاف المجيد حول دعوة التوحيد الغضة في خضم الوثنية الهائل، حيث الأصنام لا تغذي الحاجة إلى التدين في نفس كل فرد بقدر ما توفر غطاء اقتصاديا وسياسيا للملأ!

لم تكن شبه الجزيرة العربية فضاء أجرد، تعبره القوافل التجارية دون أي أثر للبُعد الروحي أو الفكري، بل كانت أيضا ملتقى للتيارات الدينية والآراء و العقائد التي نتج عنها تفاعل ذهني ولد إنكارا متزايدا للوثنية، وتعبيرا عن حالة القلق الديني التي عاشها عرب ما قبل الإسلام. وتعد ظاهرة الأحناف التي تشير إليها

المصادر التاريخية في رصدها للوضع الديني و الاجتماعي قبل الدعوة المحمدية، أبلغ تعبير عن هذا القلق و السعي إلى التحرر من وثنية لا تغذي الإيمان العميق في النفوس، ولا تقدم إجابات واضحة عما يثيره أتباع العقائد الأخرى من قضايا الألوهية و البعث و الآخرة وغيرها. ولا شك أن لخروج هؤلاء النفر عن الوثنية، ودعوتهم العلنية إلى تجديد الصلة بما رسب في الذاكرة من بقايا ملة إبراهيم الخليل عليه السلام أثرا في خلق آفاق جديدة من التفكير، تحمل ذوي العقول على التماس حقائق عليا تبدد الشك و الارتياب فيما بين أيديهم من حجارة وخشب.. وقد كان أبو ذر الغفاري أحد هؤلاء العقلاء!

في قبيلة غفار التي كانت ممرا للقوافل التجارية، ومضرب المثل في السلب و النهب وقطع الطريق.

في هذا الفضاء المسكون بهاجس الجوع وقلة ذات اليد، حيث الخشونة والقسوة عنوان البقاء، وُلد جندب بن جنادة الغفاري ليحيا كأقرانه متلمسا لقمة العيش في الإغارة على قطيع من الأغنام،أو سلب تجار ساقهم الحظ العاثر إلى طريقه. وفي هذا الفضاء ستتشكل معالم الخط الفكري لرجل نبذ الأوثان وتأله قبل أن يشرق على مكة نور الهدي المحمدي، فابتدع صلاته الخاصة التي يتوجه بها إلى الله

عشاء حتى آخر الليل! وليس في الأمر ما يدعو للإثارة إذا ربطنا خطه الفكري بالسياق العام الذي أنضجه، و المرتبط بالدعوة العلنية للأحناف إلى استعادة عقيدة التوحيد التي نصت عليها ملة إبراهيم الخليل، واستبدال شعائر الوثنية بأخرى هداهم إليها تفكيرهم الخاص. إذ كان زيد بن عمرو بن نفيل، على سبيل المثال، يسند ظهره إلى الكعبة ويقول: اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلم. ثم يسجد على راحته قائلا: إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم. وكان إذا حج يقف بعرفة ويلبي فيقول: لبيك حقا حقا، تعبدا ورقا، البر أرجو لا الخال، وهل مهجر لمن قال. عذت بما عاذ به إبراهيم، مستقبل الكعبة وهو قائم [٢١].

شكل الأحناف إذن استفزازا للشرك و الوثنية رغم حاجتهم الشديدة إلى تعاليم محددة وتوجيه سماوي، لذا كانت مسارعة أبي ذر إلى التحقق من مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة عن طريق أخيه أنيس دليلا على توافر الاستعداد القلبي و الذهني لاعتناق دعوة تمنحهم ما يغذي نشاطهم التوحيدي، أي الكتاب السماوي و الشعائر الواضحة و المحددة.

٢١د.جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. ج٦.ص ٤٧٣-٤٧٤

وفي عالم أبي ذر لا تحتاج الحقائق العليا إلى أخذ ورد أو مفاصلة، إذ يكفي أن تلامس شغاف القلب لينقاد لها بوداعة من كان حتى الأمس القريب يثير الرعب في طرق القوافل. أتى النبي صلى الله عليه وسلم برفقة علي بن أبي طالب فقال: اعرض علي الإسلام، فعرضه علي فأسلمت، فقال: اكتم إسلامك وارجع إلى قومك. قلت: والله لأصرخن بها بين أظهرهم، فجاء في المسجد فقال: يا معاشر قريش أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ. فقاموا،فضُربت لأموت،فأدركني العباس فأكب علي وقال: تقتلون، ويلكم رجلا من بني غفار، ومتجركم وممركم على غفار؟فأطلقوا عني. ثم فعلت من الغد كذلك، وأدركني العباس أيضا[٢٢].

إن هذا التحدي العلني لسدنة الشرك في توقيت لم تكن خلاله الجماعة المسلمة مهيأة للمواجهة يعكس رغبة جامحة في كسر الطوق النفسي الذي فرضه صناديد قريش، وتبديد المخاوف التي قد تصد آخرين عن اللحاق بركب التوحيد. نفس الإقدام سجله عبد الله بن مسعود حين جهر بالقرآن عند المقام بمكة، فلما ضربه

٢٢شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء.جزء السيرة النبوية.مؤسسة الرسالة.ص ١٣٦

المشركون حتى أثروا بوجهه قال أصحابه: هذا الذي خشينا عليك، فرد قائلا: ما كان أعداء الله قط أهون علي منهم الآن، ولئن شئتم غاديتهم بمثلها غدا! ثم الفاروق رضي الله عنه الذي جاهر بإسلامه في بطحاء مكة فثار عليه الناس، فقاتلهم وقاتلوه حتى قامت الشمس على رؤوسهم وهو يردد: اصنعوا ما بدا لكم، فأقسم بالله لو كنا ثلاثمئة رجل تركتموها لنا أو تركناها لكم!

ومن زاوية أخرى فإن هذه الندية كانت تستجيب لمطلب ملح آنذاك هو رسم الحدود الفاصلة في أذهان المشركين بين ما عهدوه من سخط جماعة الأحناف الذين توقفت ردود أفعالهم عند البحث عن بدائل أخرى لتحقيق حاجاتهم الدينية، وبين الإسلام الذي يبشر بعقيدة توحيد نقية تمهد لاقتلاع الشرك، ومنهج حياة يجتث الفساد الاجتماعي من جذوره، ويحرر العربي من عزلته بين كثبان الرمال ليحمل مشعل الحضارة إلى كل أصقاع الدنيا.

تساوقت الفكرة مع الفطرة في قلب أبي ذر، وهيأت له رسالة الإسلام ما يروي ظمأ تألهه الحائر، فانبرى لجهاد الدعوة وسط قبيلته، وترقب موعد الهجرة إلى يثرب حيث المنعطف الثاني في عالم أبي ذر ; منعطف بالغ الحسم يتحقق معه استكمال الولادة الثانية لرجل سيصير لاحقا أمة وحده. وفي يثرب ستبدأ الصحبة

لرسول الله صلى الله علي وسلم، وتبدأ معها سلسلة اختبارات نفسية يطابق خلالها وجدان أبي ذر فحوى الرسالة المحمدية، وتتوارى جرأة اعتراض القوافل لتظهر الشجاعة النادرة في الصدع بالحق، والزهد في المتاع، والنصح لأئمة المسلمين قبل عامتهم.

شكلت يثرب مدرسة ثانية لمن لم يواكب أحداث مكة، و لم ينصهر مع الجماعة المستضعفة آنذاك في بوتقة الاحتدام اليومي بين التوحيد و الوثنية. وكان أبو ذر أحد هؤلاء الذين فاتهم المنعطف الحاسم في تاريخ الدعوة ممثلا في موقعة بدر وأحد والأحزاب، إلا أنهم لم يخطئوا موعدهم مع صحبة النبي صلى الله عليه وسلم التي هيأت لكل فرد عناصر تربية فريدة، طهرت النفوس من رواسب الجاهلية لتعلن ميلاد جيل من العظماء. والحق أن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشكلوا كتلة متجانسة إلا على مستوى العقيدة و نصرة الدعوة، أما على مستوى الإسهام في البناء المجتمعي وصنع القرار فقد كان كل صحابي عظمة بمفرده، ونموذجا فائقا أسعفه المنهج التربوي النبوي لتحرير ملكاته وتحقيق ولادة ثانية غيرت مسار الحضارة الإنسانية. وإن شئنا الدقة في القول فإن كل صحابي عايش الرسول صلى الله عليه وسلم في حله وترحاله قد نال حظه من الوصايا و التوجيهات التي هزت كيانه، و

حررت نفسه وعقله من عبودية أرباب أربعة استعبدت الإنسان العربي أمدا طويلا: ربوبية الأصنام والجن وغيرها من المعبودات، وربوبية القبيلة، وربوبية العادات الموروثة عن الأجداد و الآباء، وربوبية الهوى والشهوات[٢٣]. ولم يكن التهذيب النبوي معارف تشحذ الذهن فحسب، بل توجيهات حية تنتشل الحس المتبلد بالمألوف و العادة من خموله ليسترد حيويته وفاعليته. وكان حظ أبي ذر من هذا التهذيب وافرا بالنظر إلى سلسلة الاختبارات النفسية التي وجهت قدراته وملكاته على نحو لازمه حتى وفاته، كما حددت له الإطار الذي ينبغي ألا يفارقه حين يتغير ما حوله ومن حوله ليظل أبو ذر أمة وحده، كما أشار إلى ذلك الحديث الشريف، يمشي وحده.. ويموت وحده.. ويُبعث وحده!

لمس النبي صلى الله عليه وسلم في شخص أبي ذر صدقا وزهدا وطهارة نفس، فكانت توجيهاته ترعى هذه المفاتيح الثلاث، وترشده إلى حيث يستثمر حدته وجرأته في بناء المجتمع الجديد وصيانته. ولنلق نظرة على بعض الأحاديث النبوية، سواء التي نقلها أبو ذر كتوجيه لعامة المسلمين،أو تلك التي كان معنيا بها في المقام الأول:

٢٣محمد قطب: منهج التربية الإسلامية ج٢.دار الشروق ١٩٨٢. ص ٢٣

• عن أبي ذر أن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب فخذه فقال: " كيف أنت يا أبا ذر إذا بقيت في قوم يؤخرون الصلاة؟ فصل الصلاة لوقتها ثم ائتهم، فإن كنت في المسجد حين تقام فصل معهم " (مسلم: ٦٤٨)

• و عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل لنفسه يحبه الناس على ذلك؟ فقال: تلك عاجل بشرى المؤمن.(مسلم: ٢٦٤٢)

• و عن أبي ذر قال: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أسمع وأطيع ولو لعبد حبشي مُجدع الأطراف. (البيهقي:١٨٥/٨)

• و عن أبي ذر قال: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شاتين ينتطحان فقال: يا أبا ذر أتدري فيم ينتطحان؟ قلت: لا، قال: ولكن ربك يدري، وسيقضي بينهما يوم القيامة. (صححه الألباني ١٥٨٨).

• و عن أبي ذر قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما يسرني أن لي أحدا ذهبا، يأتي علي ثالثة وعندي منه دينار - أو قال: مثقال – إلا أن أرصده لغريم" (أحمد ٢١٣٦٠).

• و عن أبي ذر أنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وعليه ثوب أبيض وهو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ،فقال: ما من عبد قال: لا إله إلا الله،ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة.قلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال: وإن زنى وإن سرق. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر. وكان أبو ذر إذا حدث بهذا قال: وإن رغم أنف أبي ذر " (البخاري:٥٨٢٧).

• وعن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف أنت وأئمة من بعدي يستأثرون بهذا الفيء؟ قلت: إذا والذي بعثك بالحق أضع سيفي على عاتقي، ثم أضرب به حتى ألقاك أو ألحق بك.قال: أولا أدلك على ما هو خير من ذلك؟ تصبر حتى تلقاني. (أحمد: ٢١٥٩٨).

• عن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله استعملني، قال " يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة فهي يوم القيامة خزي وندامة،إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها " (الحاكم ٩٢/٤).

إن النبي صلى الله عليه وسلم، عبر هذه المواقف و "الاختبارات"، يرصد درجة الاستعداد النفسي لدى أبي ذر لمجابهة أوضاع مائلة،

ينحرف فيها الواقع عن النص، وترتخي قبضة المسلم على القيم و التعاليم الدينية. وهذه النماذج تقربنا من إحدى خصائص المنهج النبوي الذي يعتمد الوضعية- المشكلة كأسلوب تربوي، يقيس رد فعل الصحابي قبل أن يعمد إلى تثمينه أو تهذيبه. وفي حالة أبي ذر فإن جرأته في الحق وروحه الوثابة لن تتلاءم لاحقا مع ما سيشهده المجتمع المسلم من تقلبات سياسية واقتصادية و اجتماعية، لذا حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تغذية صفتين أساسيتين تجعلان أبا ذر بمنأى عن المتغيرات وهما: الزهد و الصبر!

إن عالم أبي ذر بسيط في ظاهره، عنوانه التقشف الطوعي والإقلال من متاع الدنيا حتى يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحال التي فارقه عليها، أما باطنه فيغلي بالحق و التصدي دون هوادة لأي زيغ عن التعاليم.وإذا كان زهده وإعراضه عن زهرة الحياة الدنيا وسام استحقاق أدناه من مرتبة عيسى بن مريم عليه السلام، إلا أن جرأته في الإنكار على الولاة، وترهيب من يكنزون المال بكلمات تلذع كالسياط قد جرا عليه نقمة هؤلاء زمن عثمان بن عفان فاختار منفاه بالربذة حتى يلقى الله وحده!

" أفلا أدلك على خير من ذلك؟ تصبر حتى تلقاني "..

صبر أبو ذر طاعة لرسول الله فلم ينل شيئا من رغد العيش، وأقبلت الدنيا عليه فأعرض عنها وذم أصحابه الذين رضوا منها باليسير.مر يوما بأبي الدرداء رضي الله عنه وهو يبني بناء فقال له: قد حملت الصخر على عواتق الرجال، فرد أبو الدرداء: إنما هو بيت أبنيه، فقال أبو ذر مثل ذلك،فقال: يا أخي لعلك وجدت علي من ذلك، فقال أبو ذر: لو مررت بك وأنت في عذرة أهلك كان أحب إلي مما رأيتك فيه![٢٤].

حتى اليسير من متاع الدنيا لا يرضاه أبو ذر لصحابة رسول الله، لأنهم النماذج الفائقة التي ينبغي أن ترتفع دوما عما ينحدر إليه الناس من سعي خلف النعيم الزائل. وفي عالم أبي ذر لا تحتمل النصوص غير ما فهمه ووعاه قلبه وفكره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإذا ارتخت قبضة الناس بفعل الزمن وتبدل الأحوال بعد اتساع رقعة الإسلام، فإن صحبه أولى الناس بلزوم سنته و العض عليها بالنواجذ. إن هذا ما يفسر معارضته الشديدة لنمط الحكم الذي تبناه الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، تلك المعارضة التي تعد أهم إنجاز في سجله، و الدليل الساطع على أن

٢٤أحمد بن حنبل: كتاب الزهد.دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٩٩. ص ١٢٠

الصحبة أثمرت رجلا بألف، يمهر التاريخ بتوقيع خاص في مرحلة تمخضت عنها أحداث جسام.

لقد كان أبو ذر آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ولم يكن ثوريا، وكان زاهدا ولم يكن اشتراكيا، فشتان بين من يلذع الحاكم وولاته بسوط كلماته دون أن يفكر ولو للحظة بشق عصا الطاعة، ومن يؤلب العامة لقلب الأوضاع ولو سالت لتحقيق بغيته أنهار الدم.

شتان بين من نذر ما فضل من أيامه ليعلم الناس الزهد و الصدع بالحق والثبات على المبدأ، ومن يتوارى دون حياء خلف سُنة ميكيافيللي المرذولة: الغاية تبرر الوسيلة!

إن عالم أبي ذر الغفاري يؤسس للون من العظمة التي تشرئب إليها الأعناق كلما انحسرت تعاليم هذا الدين في وجدان الناس وواقع الحياة اليومية.عظمة الصدق الذي لا يفتر قائله حتى يؤثر في خط سير الأمة، وعظمة الزهد الذي يستوي عند صاحبه التراب بالتبر،فلا يبقى للنفس مطمح إلى فضول عيش يصرفها عن النصح للأمة وتصويب المسار.

إنه عالم أبي ذر الذي أشرق بالكلمات الخالدة في ديوان النبوة: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر!

عدل الفاروق

لا يستقيم الحديث عن الفاروق دون تقليب صفحات مشرقة من سفر العدالة، فالرجل الذي تفر منه الشياطين،وتسلك سبيلا غير سبيله هو ذاته الخليفة الذي غادر أروقة الحكم بعد عشر سنوات وهو مدين! إن عمر بن الخطاب أحد أعظم تجليات العدل الإنساني, لا كقيمة أو مبدأ فحسب،بل كاستيعاب لحقيقة ناصعة غابت اليوم،للأسف،عن أذهان كثير من المسلمين،حقيقة مفادها أن نصوص الكتاب والسنة لا تغدو مفاتيح للبناء الحضاري إلا حين يتجاوب معها العقل المسلم كنظام تشغيل.

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل إسلامه بطلا بلا قضية،توافر له الاستعداد الفطري والقدرات التنظيمية لكن حالت تجليات الوثنية على المستويين الاجتماعي والسياسي دون استيعابه، فظلت هذه المؤهلات رهينة الواقع اليومي كما يحياه فتيان قريش:معاقرة الخمر وركوب الخيل والمصارعة! نعم، أبدى عمر انصرافا للقراءة والكتابة ومطالعة ديوان العرب،لكنها بدائل لا تتيح إظهار كل قدراته ومواهبه.

انضم عمر إلى مألوف قومه في المنافحة عن الموروث الوثني حال ظهور الدين الجديد،فلقي منه الرعيل الأول من مسلمي مكة أذى واضطهادا ومعاداة لا هوادة فيها،قبل أن يأذن الحق سبحانه بفتح مغاليق البصيرة العمرية. فبادر الفاروق لحظة إسلامه إلى الكشف عما حباه الله من جرأة وحزم وصراحة لا تعرف المهادنة. بيد أنما يلفت الانتباه في خبر إسلامه هو أن كل ملكاته ومواهبه تحركت في اتجاه واحد لإحداث فرق بين فتى بني عدي كما عهده المجتمع القرشي، والفاروق الذي هو صنيعة الإسلام.ولعل مزية العدل إحدى تلك الصفات التي سارع إلى الكشف عنها في حادثة عجيبة يرويها ابنه عبد الله على النحو الآتي:

" لما أسلم أبي عمر قال: أي قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي، فغدا عليه حتى جاءه فقال: أعلمت يا جميل أني قد أسلمت ودخلت في دين محمد؟ فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه، واتبعه عمر، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، وهم في أنديتهم حول باب الكعبة, ألا إن عمر قد صبأ، وعمر خلفه يقول: كذب، ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله. وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، فقعد و قاموا على

رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاثمئة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا."

ليس في الأمر تهور إلا بمقياس من لم يدرك طبيعة الهزة التي أحدثها الدين الجديد في كيان ظل يترقب فرصة التحرر من موروث مغلق،ومنظومة اجتماعية لا تسعف ذوي الهمم والقدرات الاستثنائية على صنع الأحداث. لقد كان إصرار عمر على الدخول في مواجهة غير متكافئة مع كفار قريش إيذانا بانبثاق العدل كصفة خلقية ملازمة لتصرفاته ومواقفه طيلة فترتي الرسالة والخلافة.مواجهة اقتص الفاروق خلالها من عمر الجاهلي الذي أذاق مستضعفي الجماعة المسلمة ألوان الأذى والاضطهاد!

تولت المدرسة النبوية إنضاج العدل في سلوك الفاروق ومواقفه من خلال استحضار معاني الرأفة والرحمة، وترك فسحة للعفو والصفح والاستثناء الذي بدونه يصير العدل ميزانا أجوف لا روح فيه! ومن يتتبع الأحداث التي أدلى فيها الفاروق بدلو المشورة،يلمس حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تصويب جرأته وحزمه،وتغليبه لإقامة الحدود مادام هناك متسع للرحمة والمرونة،أو لتحقيق مكسب دعوي وسياسي أهم.

لما حدثت خصومة بين مهاجري وأنصاري في غزوة بني المصطلق، وكادت العصبية أن تنفث سمومها, كشف عبد الله بن أبي بن سلول مجددا عن نفاقه وحرصه على تمزيق وحدة الصف وتحريك الضغائن بين إخوان العهد القريب، فقال قولته البغيضة: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل , فلما بلغ الخبر النبي صلى الله عليه وسلم قام عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فرد النبي صلى الله عليه وسلم: " دعه، لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه".

موقف لو جرت فيه موازين العدل دون وقوف على التداعيات لطار رأس ابن سلول بسيف عمر دون تردد، لكن الحكمة النبوية ارتأت الحفاظ على السمعة السياسية ووحدة الصف الداخلي، يقول الدكتور **علي الصلابي** في كتابه (السيرة النبوية)، فلو أن النبي صلى الله عليه وسلم واجه مؤامرة ابن سلول بالقوة و استعمال السلاح لغضب رجال متحمسون له ,وقد يدفعهم تحمسهم له إلى تقطيع الوحدة المسلمة، وليس في ذلك أي مصلحة للمسلمين ولا للإسلام. وقد كشفت الأيام أثر هذا الصفح في نفوس أتباع ابن سلول الذين صاروا يعنفونه كلما أحدث أمرا، فنبه النبي صلى الله عليه وسلم عمرا إلى أثر سياسته الحكيمة قائلا:" كيف ترى يا عمر؟ أما والله

لو قتلته يوم قلت لي لأرعدت له أنوف لو أمرتها اليوم لقتلته" فقال عمر: قد-والله- علمت. لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمري.

ليس العدل في المنهج النبوي عدل غريزة جُبلت عليه فلا تتصرف فيه وفق الظروف والملابسات، وليس عدل فكر محدود يمضي إلى غرضه كالسهم دون أن يلتفت يمنة أو يسرة لما يجري في مسرح الحياة من تقلبات ومستجدات, بل هو عدل تصوبه الفطنة والحكمة ومقتضيات السياسة.إن الرجل ,يقول العقاد رحمه الله في كتابه (عبقرية عمر), حين يجتنب التصرف في العدل عجزا عن الفهم والتزاما للحرف المكتوب ونزولا إلى مرتبة الموازين التي لا تعي ولا تغضب ولا تغار، إنما هو آلة فقيرة في مادة الحياة. أما الرجل الذي يجتنب التصرف في العدل غيرة على الضعيف وقدرة على القوي، وعلما بالتبعة واضطلاعا بجرائرها فذلك حي غني بالحياة،يعدل لفرط السليقة الإنسانية والقدرة الحيوية، ولا يعدل لأنه آلة تشبه الميزان الذي لا حس فيه.

لكن إذا كان في العدل متسع لمقتضيات السياسة والنظر السديد لعواقب الأمور فلا مجال فيه للتساهل حين يتعلق الأمر بالعقيدة.والفاروق، كما يقول **نظمي لوقا**، رجل تقمص روح العقيدة

وألغى في وجدانه كل حساب إلا إعلاء كلمتها وسلطانها ,حتى غدا دم الأب المشرك عنده لا يزيد في قيمته عن دم كلب! وفي موقف أبي بكر رضي الله عنه من مانعي الزكاة ,غداة توليه الخلافة،وتفعيل صارم للعدل الذي لا يقبل المهادنة أو توسيع دائرة الخيارات في التصدي للفتن والقلاقل التي تروم تمزيق الصف الإسلامي. إن ما قد يراه البعض جورا أو صرامة مبالغا فيه هو عدل وقائي،تكشف الأيام صواب اعتماده في القضايا المفصلية.

شكلت خلافة أبي بكر الصديق مناسبة لاكتمال صورة العدل في ذهن الفاروق بما يتناسب والإدارة الاستثنائية للأزمات، فحروب الردة والمبادرة إلى جمع القرآن الكريم بعد أن استحر القتل بقرائه ,وتسيير شؤون الفتوحات هي في الواقع محطات هيأت الفاروق لتحمل أعباء الخلافة، وتحديد معالم سياسته وخطته في الحكم.

في (البيان الرئاسي) الذي استعرض الفاروق خطوطه الرئيسية من على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تأكيد على أمرين اثنين: أولهما أن خلافته هي امتداد للعهد المبارك: عهد النبوة وأيام أبي بكر، و بالتالي فلن يحيد عن نهجهما قيد شعرة. وثانيهما أن الناس لا مفر لهم من شدته وغلظته التي هابوها يوم تمت مبايعته، لكنها شدة وغلظة على أهل الجور. يقول في خطبته التي أوردها أبو يوسف

في كتابه (الخراج) نقلا عن سعيد بن المسيب:" ثم إني قد وليت أموركم أيها الناس، فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت – وفي رواية ازدادت أضعافا-، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي على المسلمين, فأما أهل السلامة والدين والقصد، فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض. ولست أدع أحدا يظلم أحدا أو يتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض, وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للحق! وإني بعد شدتي تلك أضع خدي على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف". وقد صدقت الأيام هذا المنهج و تجلت في فترة خلافته معالم مجتمع العدل الذي ظل محلقا في مخيلة الفلاسفة القدامى دون أن يجدوا له موضع شبر على أرض الواقع! ولن نبالغ بكل تأكيد إذا جزمنا بأن الفاروق هيمن بعدله وحزمه على الدولة و مؤسساتها وأفرادها بمن فيهم الجم الغفير من الصحابة وأولي العلم والفضل والسبق، حتى قال ابن عباس رضي الله عنهما " أكثروا ذكر عمر، فإن عمر إذا ذُكر ذُكر العدل, وإذا ذُكر العدل ذُكر الله ".

تضعنا سيرة الفاروق أمام حاكم دولة مترامية الأطراف يقيم العدل على نفسه فيأبى أن يأخذ من بيت مال المسلمين شربة عسل لمرض ألم به حتى يستأذنهم, فيصعد المنبر ويقول: إن أذنتم لي فيها أخذتها، وإلا فإنها علي حرام، فيأذنوا له فيها!

و يقيم العدل على أهل بيته فيأبى على زوجته أن تتولى قسمة غنائم من مسك وطيب بين المسلمين خشية أن يعلق بيديها أثر منه،فيؤثر به أهل بيته دون سائر المسلمين! ويقسم غنائم جلولاء فيعطي ابنه عبد الله نصيبا أقل من نظرائه قائلا: يا عبد الله، إن لك أسوة في عمر، لايسألني الله يوم القيامة أني ملت لأحد!

ويرى من العدل أن يتصدى لمظاهر الترف التي تؤذن بتفكك عرى النسيج المجتمعي فيدعو فتى قد أسبل إزاره وهو يجره , فيأمر بشفرة يقطع بها طرف الإزار، ويأتي مجزرة الزبير ومعه الدرة،فإن وجد رجلا اشترى لحما ليومين متتابعين ضربه بها وقال:ألا طويت بطنك لجارك أو ابن عمك؟

ويقيم العدل على الدواب و الأنعام فيأمر الناس ألا يحملوها ما لا تطيق و ن يتقصدوا بها في المسير، ويردد قولته التي يُحمل معناها على المحاسبة كما يُحمل على العدل " لو مات جمل ضياعا بشاطئ الفرات لخشيت أن يسألني الله عنه".

ويقيم العدل في العطايا فيأمر ولاته بالتسوية بين العرب والموالي، وبأن يشمل العطاء فقراء أهل الكتاب و ضعفاءهم.

ويقيم العدل على ولاته فلا يكتفي بوضع شروط قاسية لمن يوليهم على أمور الناس في كل الأمصار، بل ويُشهد الناس عليهم و يرسل العيون ولجان التفتيش. ويبلغ حرصه على العدل أن يأمر الولاة بألا يتكئوا في مجالس الحكم , ويكتب إلى عمرو بن العاص:" وقع إلي أنك تتكئ في مجلس، فإذا جلست فكن كسائر الناس ولا تتكئ"!

بل ويرتفع بالعدل عن نطاق الزمان والمكان لينصف الأجيال المقبلة في قصة تقسيم الأراضي المفتوحة, فيأبى أن يقسم ما حازه المسلمون من سواد العراق خشية ألا يبقى لمن بعدهم نصيب،ويأمر بأن توقف ويُضرب عليها خراج يدوم نفعه للمسلمين!

لا غرابة إذن أن يثني المجتمع المسلم على خلافة الفاروق ثناء يحمل من بعده من ولاة الأمر على تسديد النظر وتصويب القرار قدر المستطاع، فهمة كمثل همة عمر أعز من الكبريت الأحمر!وكم سمع الناس عليا بن أبي طالب رضي الله عنه يقول " إن الله جعل أبا بكر وعمر رضوان الله عليهما حجة على من بعدهما من الولاة إلى يوم القيامة.. سبقا والله سبقا بعيدا، وأتعبا من بعدهما إتعابا شديدا!

ذاك هو عدل الفاروق، وتلك هي معالم الحكم العادل والسلوك العادل.. والقضية العادلة!

قمح على رؤوس الجبال!

من المواقف المنسوبة إلى الخليفة **عمر بن عبد العزيز** أنه لما جيء إليه بأموال الزكاة أمر بإنفاقها على الفقراء، فقالوا: ما عاد في الأمة فقراء. فأمر بتجهيز الجيش، و تزويج الشباب، ثم قضاء الدين على المدينين. ولما بقي مال قال: اشتروا به قمحا وانثروه على رؤوس الجبال، لكي لا يقال: جاع طير في بلاد المسلمين!

سواء صحت هذه الرواية أم لا فإن لعمر بن عبد العزيز مواقف شتى مع الحيوان في فترة حكمه. غير أن ما يعنينا في هذه الأسطر المعدودة أن ذاك الموقف يؤخذ كمحصلة عجيبة للعدل الذي شاع في عهده، و للثروات التي تدفقت على بيت المال، وجرى توزيعها بشفافية نادرة همت حتى دواب البريد. لكن خلف الاندهاش تستقر حقيقة غابت للأسف الشديد عن أذهان كثير من المسلمين، وهي أن نصوص الكتاب والسنة أرست دعائم تصور جديد لعلاقة المسلم بما حوله من الموجودات. وأن التعبير القرآني قد عرض لحقائق وإشارات تستدعي التدبر، كي يدرك المرء أن السلوك العمري تجل فريد لما ينبغي أن يكون عليه كافة المسلمين.

شكل نزول الوحي مرحلة جديدة للقطع مع قراءة سالفة، لا قيمة فيها للحيوان سوى ما يؤديه من خدمة للإنسان غير مشكور عليها. فتوالت الآيات التي تعيد للكائنات اعتبارها، وتنص على ما يقتضيه التسخير والتكريم من إحسان ورعاية، ومعاملة قوامها التخفيف والرفق.

إن اندراج الحيوان في المنظومة الحياتية للمسلم عبر عنه القرآن الكريم والهدي النبوي ضمن خطوط ثلاثة هي: **نعمة التسخير، ووظيفة التسبيح، وضرورة الرفق.**

في نعمة **التسخير** يحدد القرآن المقصد من وراء تمتيع الإنسان بموجودات أخرى، فهو أحد تجليات التكريم الإلهي لابن آدم، وتهيئة الوسائل التي تضمن أداءه مهمة الاستخلاف وإعمار الأرض على أكمل وجه. يقول تعالى: (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم. والخيل والبغال الحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون) **النحل**.٥-٨. ويقول جل جلاله: (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها. وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له

الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون)**الزمر**-٦- وتأمل كيف زاوج سبحانه في الآية بين خلق الإنسان وإنزال الأنعام، ليتحرر عقل المسلم ووجدانه من رواسب التملك الجاهلي للحيوان، وما يفضي إليه من سلوكات جائرة.

وأما وظيفة **التسبيح** فيحيل إليها التعبير القرآني على عالم الحيوان بلفظ **"أمم"**، وذلك في قوله تعالى: (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم. ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون) الأنعام-٣٩. يقول القرطبي مفسرا: هم جماعات مثلكم في أن الله عز وجل خلقهم، وتكفل بأرزاقهم، وعدل عليهم. فلا ينبغي أن تظلموهم، ولا تجاوزوا فيهم ما أمرتم به. وقيل: هم أمثال لنا في التسبيح. وتتأكد هذه الوظيفة التعبدية في قوله تعالى: (يسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن. وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا)**الإسراء**- ٤٤. ومتى استشعر المسلم هذا القاسم المشترك فإنه سيوجه جزءا من اهتمامه للرعاية والإحسان، والتماس الأجر والثواب نظير المعاملة الحسنة.

نتج عن الفهم السديد لنعمة التسخير ووظيفة التسبيح إرساء وطيد لمنظومة من الحقوق التي سيتمتع بها الحيوان منذ عصر النبوة.

وتزخر كتب الحديث والسيرة بعشرات المواقف التي هذب من خلالها النبي صلى الله عليه وسلم سلوك المسلمين إزاء الحيوان، وحض على نبذ عوائد الجاهلية.

عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فانطلق لحاجته. فرأينا حُمّرة معها فرخان فأخدنا فرخيها، فجاءت الحُمرة فجعلت تفرش، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "من فجع هذه بولديها؟ ردوا ولديها إليها ".رواه **أبوداود في كتاب الجهاد-٢٦٧٥-**

وفي المستدرك أنه صلى الله عليه وسلم رأى رجلا قد أضجع شاة وهو يحد شفرته فقال: أتريد أن تميتها موتتين؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تُضجعها. -٧٦٢٦-

واتخذ الهدي النبوي من المنهيات أسلوبا لإشاعة **ضرورة الرفق** في الواقع اليومي، فنهى عن اتخاذ شيء فيه الروح غرضا للنبال والحجارة، أو تعذيبه بالنار، أو وسمه في الوجه. وفي باب الترغيب و الترهيب عرض النبي صلى الله عليه وسلم لنماذج من المعاملة التي قادت إلى الثواب أو العقاب، كما في خبر المرأة التي دخلت النار في هرة حبستها، والرجل الذي غفر الله له لأجل كلب سقاه.

وجسَّد صلى الله عليه وسلم أرقى نموذج لرعاية الحيوان والإحسان إليه، فانكب الفقهاء من بعده على تحديد واجبات المسلم إزاء الدابة والطير ونحوها، وفصلوا في الأمر تفصيلا لم تسبق إليه حضارة أخرى.

تكشف الخطوط الثلاثة أعلاه عن تهافت خطاب الرفق بالحيوان، كما يتردد في وسائل الإعلام الغربية. لأن هذا الأخير تعبير عن أزمة ووضع كارثي قاد إليه غرور الإنسان المعاصر، وهوسه بالعنف والسيطرة على الطبيعة. فهل يستوي في هذا المقام موقف عمر بن عبد العزيز وهو يوجه رسالة إلى والي مصر، تمنع الحمالين أن يحملوا على ظهور الإبل فوق ما تطيق، مع موقف عالم الاجتماع الأمريكي **إيريك هوفر** الذي قتل أزيد من نصف مليون حيوان بري في روديسيا بحجة مكافحة ذبابة النوم؟

قلب رحماني

ما إن شعر الخليفة باقتحام المجرمين للدار حتى سارع إلى المصحف لينظر فيه. ليس خوفا من القتل، أو محاولة يائسة للنجاة باستدعاء قوى غيبية، وإنما استكمالا للرحلة التي دشنها قلب رحماني منذ طرق الإيمان بابه.

مشهد غير مألوف في زمان العسس والحرس، والعيون التي ترصد الصغيرة قبل الكبيرة، وتحذر من الخطر على بعد أميال. لكنه هنا تتويج لمسار رجال ألهمهم الدين تضحية فريدة بالنفس قبل المال، وحلق بعزائمهم في آفاق عجز التاريخ عن مواصلة السير فيها، فارتد إلى واقعه ليُقتل عثمان رضي الله عنه!

في شرحه لعجائب القلب يفرق **أبو حامد الغزالي** بين قطعة اللحم المودعة في صدر المخلوق، سواء كان إنسانا أو بهيمة أو ميتا لا فرق، وبين اللطيفة الربانية المتعلقة به والتي لأجلها عظُمَ شرف الإنسان. وحديثي هنا عن القلب الرحماني إنما يومئ للمعنى الثاني الذي حمل نخبة من فتيان قريش على مخاصمة القوم وتحمل أذاهم،

وجعل من وردهم القرآني زمزمَ أرواحِهم، وفسحتهم اليومية للنظر والتفكر والاعتبار.

كان إسلام عثمان رضي الله عنه، كما نستشف من أخبار الرواة، موقفا متبصرا، وتفاعلا إيجابيا مع النظرة الثاقبة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه في كشف ضلال الوثنية، ومجافاتها للعقل. ومن دون شك فإن لطبيعته السمحة والهادئة دورا في تلك النقلة الفريدة التي كانت لتشكل حدثا لا يقل أهمية عن إسلام الفاروق وحمزة رضي الله عنهما، لولا حرص بعض رواة السيرة على تغليب حضور ذوي البأس والشدة! كيف لا وقد أحدث جهاد عثمان بماله منعطفا في مسارات شتى زمن الرسالة!

دخل أبو هريرة رضي الله عنه على رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي زوج عثمان رضي الله عنه وفي يدها مشط، فقالت: خرج من عندي رسول الله صلى الله عليه وسلم آنفا، رجّلت رأسه فقال: " كيف تجدين أبا عبد الله؟" يعني عثمان، قلت: كخير الرجال. قال:" أكرميه، فإنه من أشبه أصحابي بي خلقا"- رواه أحمد في فضائل الصحابة.رقم٨٤٠- ولأن خلق النبوة هو القرآن فسيكون لفتى قريش لقاء عجيب معه، يشهد به الصحابة وتؤكده مجريات الأحداث!

اجتمعت في عثمان خصلتان لا يحتملهما إلا قلب رحماني، هما الحياء والسخاء. وكان لتعلقه بالقرآن أثر بالغ في اعتمادهما بوصلة للسلوك اليومي تجاه الناس عامة، والمحتاجين على وجه الخصوص. وهو القائل رضوان الله عليه: حُبب إلي من الدنيا ثلاث: إشباع الجيعان، وكسوة العريان، وتلاوة القرآن. وإكساب القلب صفة الرحمانية ليس بالأمر الهين، إن لم يكن لصاحبه شغل مع القرآن يملك عليه نفسه ووقته، وكذلك كان عثمان!

عرض القرآنَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته.

وكانت يمينه أول يد تخط المفصل قبل أن يقطعها قاتله.

وخرّق مصحفه من كثرة التلاوة، وفرطِ ما أدام النظر فيه.

وروي من وجوه عديدة أنه صلى بالقرآن الكريم ركعة سميت بالبُتيراء.

وستظل مفخرته للأبد أنه جمع القرآن الكريم في مصحف واحد، ووأد بذلك خلافا في مهده.

وكان القرآن الكريم حجته البالغة زمن الفتنة، حتى أنه قال لبعض محاوريه: " إن وجدتم في كتاب الله أن تضعوا رجليّ في قيود فضعوهما".

وحين استشهد رضي الله عنه كان المصحف بين يديه، وانساح دمه الشريف على قوله تعالى: { فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم} البقرة:١٣٧.

إنها محطات وجدانية تستحث الدارس لشخصية عثمان رضي الله عنه كي يتوقف عندها ويتدبرها جيدا. لأن مدار النص القرآني على المعايشة القلبية، إن صحت فإنه يختلط بلحم القارئ ودمه، وإن لم تصح يصير حجة عليه يوم القيامة.

أبلغ تعبير لعثمان رضي الله عنه عن معايشته للقرآن قوله: لو أن قلوبنا طهرت ما شبعنا من كلام ربنا، وإني لأكره أن يأتي علي يوم لا أنظر في المصحف. وطُهر القلب هو تتويج لرحلة مع القرآن، ابتدأت بجمعه وتلاوته وكتابته، لتنتهي بالانغماس في معانيه حد الإعراض عن زخرف الدنيا، وإيثار الصيام والقيام على رغد العيش والترف. وهي الصورة التي حملت الصحابي الورع عبدالله بن عمر رضي الله عنهما على تفسير قوله تعالى:{ أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه} الزمر: ٩، بقوله: هو عثمان بن عفان!

" افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه"، هكذا أجيب عثمان رضي الله عنه وهو يستأذن بالدخول على النبي صلى الله عليه وسلم. فحمد الله ثم قال: الله المستعان.

تلك إحدى صفات القلب الرحماني: ألا يكتفي بتوقع البلاء وإنما يستعد له. غير أنه استعداد لا يروم دفع البلاء وإنما تلقيه برضى كامل، وخضوع يليق بقلب عايش الوحي غضا طريا. وفي اللحظة التي تجمع فيها المشاغبون أمام بيته، مهر عثمان رضي الله عنه خضوعه للبلوى بتوقيع السخاء والحياء: سخائه بنفسه صيانة لكيان الدولة ووحدة الأمة، وحيائه من ربه أن يُسفك دم في الدفاع عنه.

رحم الله عثمان!

قارئ القرآن.. دوت كوم

واكبت عدد من أقلام السلف، التي اهتمت بآداب حملة القرآن، خطوات القارئ لتسديدها، ولتنبيهه من المطبات التي قد تنشأ عن تفاعله اليومي داخل المجتمع. بمعنى أن لقارئ القرآن مساحة أضيق من التي يتحرك داخلها الإنسان العادي، ومرد ذاك التحديد إلى خصوصية كتاب الله التي تُلزم قارئه بآداب وسلوك مخصوص يميزه عمن سواه.

نشهد في السنوات الأخيرة عودة ملحوظة للقرآن الكريم، تؤكدها الأعداد الغفيرة من رواد الكتاتيب ودور التحفيظ، ويؤيدها ثقل الحضور على مستوى الفضائيات وشبكة الإنترنيت. وأسهمت الفعاليات الدولية المهتمة بالحفظ والتجويد في إضفاء سمة الحدث الإعلامي المميز على لقاءات التباري بين حملة كتاب الله. لكن، بعد أن انقسم اللغط إلى واقعي وافتراضي، وتنازل الناس عن قسط من حياتهم لصالح شبكات التواصل الاجتماعي، بات لزاما على قارئ القرآن أن يحتفظ بمسافة ضرورية تفصله عن تداعيات الاحتكاك اليومي بالمتصفحين والمتصفحات، وألا ينساق خلف تنافسية فجة،

واحتفاء شبيه بالذي يلقاه نجوم الرياضة والغناء،واللاهثون خلف التميز وتحطيم الألقاب.

ينتسب قارئ القرآن إلى **أهل الله وخاصته،** بمنطوق الحديث الشريف، ويزكيهم القرآن الكريم بقوله: ((يتلونه حق تلاوته)) [البقرة:١٢١].ومن حقوق التلاوة التي خص بها **أبو بكر الآجري** رحمه الله قارئ القرآن: "أن يكون بصيرا بزمانه وفساد أهله، فهو يحذرهم على دينه... يطلب الرفعة من الله عز وجل لا من المخلوقين، ماقت للكبر خائفا على نفسه منه، لا يتأكل بالقرآن، ولا يحب أن تقضى له به الحوائج.. يصحب المؤمنين بعلم، ويجالسهم بعلم.. فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن، فكان كالمرآة يرى بها ما حسُن من فعله، وما قبُح منه."

لقد تخيرت تلك العبارات لأنها تنسجم مع الغاية من هذه المقالة، وإلا فالحقوق كثيرة، وما عرضه **الآجري** في (مختصر أخلاق حملة القرآن) يصح دستورا أخلاقيا لكل قارئ ومعلم يتطلع لشرف الانتساب إلى **أهل الله.** إنها عبارات تروم وضع قارئ القرآن في مقابل الصخب اليومي المنبعث مما يصطلح عليه ب(السوشيال ميديا)، والاقتراب من شكل العلاقة التي تؤطر حركته في العالم الافتراضي.

يكفي أن يضغط بضعة آلاف من رواد الأنترنيت على زر المشاهدة لمقطع فيديو حتى ينتقل القارئ الشاب إلى مصاف المشاهير، وينتظم حوله ثلة من المعجبين الذين يُنشئون باسمه حسابات تواصل. وبما أن الإعلام تدحرج من صنع الخبر إلى خدمة الكتلة الضاغطة على الزر، فإن المواقع تتهافت لتحظى بلقاء أو دردشة مع النجم، في إطار احتدام يومي للبقاء في مربع "الأكثر متابعة". ونظرا لكون الرواد أغلبهم من فئة الشباب فإن ما يثير تحديدا في مقاطع التلاوة هو الصوت الحسن، أو حالة الخشوع التي تولدت عن ترديد آية في مناسبة ما. وبتنا نعاين مفاضلة بين قارئ وآخر، وثناء يقطع عنق صاحبه حين تبلغ الإشادة مدى مؤسفا كترديد عبارة "القارئ المعجزة" والقراءة "الخرافية".

يتحدث **الآجري** عن البصر بالزمان وفساد أهله، بمعنى أن ينتبه القارئ لمعدل انحراف المجتمع عن مقاصد الشريعة وضوابطها، حتى لا يقع في فخ الدنيوية التي تفسد نيته وعمله. وهي التي أشار إليها **الآجري** بقوله " يطلب الرفعة من الله عز وجل لا من المخلوقين، ماقت للكبر، لا يتأكل بالقرآن،ولا يحب أن تقضى له به الحوائج." ومعلوم أن ما يهمين اليوم على شبكات التواصل الاجتماعي هو هاجس الإنجاز، ورصد أية حركة أو سكنة تصلح

لكسب المعجبين وزيادة مستهلكي الخبر أو الصورة. وحين يُسلم القارئ نفسه لهواة التسويق والبحث عن "العالمية"، تبدأ الحدود التي سطرها الشارع الحكيم بينه وبين عامة الناس بالاهتزاز. أليس من المحزن حقا أن يلجأ قارئ شاب لإغناء صفحة معجبيه بصور تُظهر تسريحات شعره المختلفة؟

ومن تجليات طلب الرفعة من المخلوقين أن يسكت القارئ على الألقاب التي تبالغ في وصف أدائه، ويغض الطرف عن مبادرات تروم تسويقه ضمن قالب لا يختلف كثيرا عن نجوم الطرب. فعلى سبيل المثال يتم الترويج لفيديو تجلس فيه قارئة شابة بين يدي خبير مقامات تحت عنوان " **لقاء السحاب**"!

ويجري القارئ حوارا مع صحفي من الدرجة العاشرة، فيجد نفسه أمام حرج الإجابة على أسئلة سخيفة قد تجعله مادة للتهكم أو السخط على مواقع التواصل الاجتماعي. وربما يزل اللسان برأي أو وجهة نظر في قضية اجتماعية، فيعزز انقسام الصفوف بدل لمّ الشمل.

وقد يقبل، راضيا أو مكرها، بالاحتدام الذي تشهده بعض المواسم الدينية كرمضان، حيث ينخرط المعجبون في سباق محموم لرصد مؤشر بورصة القراء. وتبدأ المفاخرة بعدد المصلين، خلف القارئ

فلان أو علان، وحفز ظاهرة تنقل الناس من محل سكناهم إلى مساجد بعيدة، وفي بعض الأحيان قطع مئات الكيلومترات لتزكية سلوك نهى عنه النبي الكريم!

يضيف **الآجري** قائلا: " يصحب المؤمنين بعلم، ويجالسهم بعلم.."، ومسؤولية هذا (العلم) تقع حقيقة على عاتق مؤسسات التحفيظ، التي ينبغي أن تدرج ضمن المنهاج مادة متعلقة بأخلاق القرآن وآدابه، يُمتحن فيها الطالب كما يُمتحن في أصول التلاوة وقواعد التجويد. وأن تُراعى كمعيار أساسي في قبول طلبات التباري ضمن المسابقات الكبرى. ومن شأن هذا المسعى أن يعزز في ذهن القارئ ووجدانه خصوصية كتاب الله، ويرسم له بشكل حاسم خطوات السير في طريق **أهل الله.**

إن القرآن مرآة القارئ، يرى فيه ما حسن من أفعاله وما قبح منها. وما يهيمن اليوم على مواقع التواصل الاجتماعي من صخب التنافس والمتاجرة في كل شيء، والبحث عن نجومية زائفة، جدير بأن يحمل القارئ على ترك مسافة ضرورية بينه وبين أشكال اللغط، وأن ينتهج نهجا وسطيا لا ينكفئ فيه على نفسه، ولا ينساق خلف ألاعيب الأنفوميديا.

يقول **الفضيل بن عياض** رحمه الله:" ينبغي لحامل القرآن ألا تكون له حاجة إلى أحد من الخلق، وينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه".

فتأمل!

مات في حديده!

للثبات رحلته..

بل هي قصة الصمود الإنساني حين تتملكه الفكرة الحقة، والعقيدة الصادقة، فيؤثر أن يمنحها دمه وماله لقاء أن تواصل إشعاعها وحضورها. فكان الدم زيت السراج الذي يضيء الظلمات!

ومن الظلمات التي تناولتها كتب الأخبار ومصنفات التاريخ الإسلامي: محنة خَلق القرآن، وما تلاها من تصفية جنونية للأئمة والعلماء، وسطوة على منافذ الفكر الحر والحق في اختلاف الرأي والتعبير، وتمكين ضعاف النفوس من رقاب الكفاءات للزج بها في أتون العسف والقهر.

يحيل المناخ السياسي الذي ولدت وترعرعت فيه تلك المحنة، على صراع محتدم بين سلطة الدولة، ممثلة في الخليفة وأعوانه، وسلطة المعارضة التي يمثلها العلماء والفقهاء، وتحظى بدعم الإرادة الشعبية. وإذا استحضرنا اقتران الفعل السياسي آنذاك بالمفاهيم الدينية، من قبيل الجبر، والقدر، وحكم مرتكب الكبيرة وغيرها،

تسنى لنا أن ندرك حجم المكاسب التي يمكن أن تحققها الدولة بإثارة قضية ظاهرها ديني، وباطنها سياسي بامتياز.

سعى **المأمون** بعد إزاحته لأخيه **الأمين** من عرش الخلافة وقتله سنة ١٩٨هـ-٨١٣م، إلى تفكيك المعارضة الشعبية التي يرأسها الفقهاء ورجال الحديث لأسباب في مقدمتها: إحداث هوة بين الفقهاء والعامة لمنع قيام ثورة أو حتى أعمال شغب، خاصة بعد أن أثبت الفقهاء قدرتهم على تحريك "الشارع" لوقف حالة الفوضى وأعمال النهب التي عاشتها بغداد طوال ست سنوات بعد مقتل الخليفة الأمين.

ويرتبط السبب الثاني بتبديد حالة السخط العام بعد إعلان المأمون عن إسناده ولاية العهد لعلي الرضا ابن موسى الكاظم، في محاولة منه لكسب ولاء العلويين الشيعة. وهو الأمر الذي عده الناس سعيا مفضوحا لتسليم مقاليد الحكم للعنصر الفارسي، فظهرت موجة تعاطف شديدة مع الأمويين حركها العداء التقليدي المستحكم منذ الجاهلية بين بني هاشم وبني أمية.

أما السبب الثالث فمتعلق بتمكين **المعتزلة**، الذين حظي بعضهم بمناصب عليا في الدولة، من مساحة واسعة للحركة، ونشر مذهبهم داخل فضاء ديني يهيمن عليه الفقهاء ورجال الحديث.

هيأت محنة خلق القرآن إذن جوا من الإرهاب الفكري والنفسي الذي استثمره المأمون ليفكك جبهة المعارضة، ويستميل إليه قلوب العامة. فحول مجالسه إلى ساحة للمناظرة، يمتحن فيها نخبة العلماء لحملهم على الانصياع لمذهبه، وبالتالي تجريدهم من مكانتهم وحضورهم في الوجدان الشعبي، أو تصفيتهم بمبرر ديني لا يثير حفيظة الناس!

غير أن المسألة اتخذت منحى خطيرا في زمن **الواثق والمعتصم**، لتتحول إلى حرب لإسقاط الرموز في أرجاء الدولة العباسية. وفي مثل هذا الجو الخانق سهل على الحساد وضعاف النفوس تصفية الكفاءات، واستثمار ضغائنهم على نحو أبشع. ومن جملة الذين راحوا ضحية الغيرة والتنافس غير الشريف: **أبو يعقوب البويطي**، وريث مجلس الشافعي وفقهه في مصر، والعالِم الذي آثر أن يموت في حديده على الرضوخ لبدعة خلق القرآن.

يمكن القول أن **البويطي** نموذج للخيط الرفيع بين المنحة والمحنة، أو لذاك التوقيت المذهل الذي ما إن يشرق فيه ذهن الباحث حتى يبتلى بامتحان المواقف واختبار العزيمة. ونقطة التحول في مسار **البويطي** تبدأ لحظة تخليه عن مذهب الإمام مالك بعد أن اجتذبته حلقة الإمام **الشافعي** فور قدومه إلى مصر.

ينقل عنه **أبو بكر الصيرفي** قوله:" قدم علينا الشافعي مصر فأكثر الرد على مالك، فاتهمته وبقيت متحيرا؛ فكنت أكثر الصلاة والدعاء، رجاء أن يريني الله الحق مع أيهما، فرأيت في منامي أن الحق مع الشافعي فذهب ماكنت أجده". وفي استنجاد الطالب بالصلاة والدعاء ألطف تعبير عن رحلة البحث عن الحق التي لا تُفْرط في التمذهب ولا تتقيد بالرجال.

لزم **البويطي** مجلس الشافعي حتى صار أخص تلاميذه، ومكنته نجابته ودقة فهمه من التقدم على بقية أقرانه، فكان يؤلف ويناظر ويفتي. أما على المستوى الخلقي فقد ذاع بين الناس ورعه وصلاحه وتقشفه، وبذلك تضافرت الأسباب الجديرة بإذكاء نار الحسد في صدور أقرانه، لتلوح شرارتها لحظة إعلان **الشافعي** عن استخلافه على حلقته، ليحسم خلافا حركه **المزني** و**محمد بن عبد الحكم** الذي

كان أحرص الثلاثة على تولي المنصب، وبادر إلى مفارقة مذهب الشافعي نهائيا!

يتعلق الأمر إذن بحلقة عظيمة هي حلقة الإمام **الشافعي**، وبمناخ فكري متشدد امتدت خلاله حبال الخليفة **الواثق** وأعوانه لتلتف حول رقاب الفقهاء والقضاة، بل حتى معلمي الصبيان ممن أبوا القول بخلق القرآن. وفي منزلة كالتي بلغها **البويطي** كان بمقدور أي موظف دولة آنذاك أن يقذفه بالتهمة الجاهزة ليقطع الخيط الرفيع بين المنحة والمحنة. وهو الأمر الذي تم فعلا على يد **أبي بكر الأصم**، بتواطؤ مؤسف مع عبد الله بن الإمام الشافعي!

لاشك أن المحن نار تختبر معادن الرجال، وفيها تختلف الأقيسة والموازين بحسب ولاء الرجل ومبادئه، وتقديره لحجم المكاسب والخسائر. وفي حالة **البويطي** فنحن أمام فقيه لم يرث فقط مجلس الشافعي، بل تحمل كذلك مسؤولية التبليغ وشرف العلم، وضرورة بذل النفس حتى لا يُفتن الناس عن دينهم إن رأوا في العالم ترددا أو تراخيا، أو حرصا على بقاء يستوي فيه مع الأراذل. وتكشف عبارة من الحوار الذي لم تنقل لنا الأخبار تفاصيله بين والي مصر والبويطي، عن تبصر هذا الأخير ودقة فهمه للسياق العام.

لما أرسل الوالي ليمتحنه في مسألة خلق القرآن، بأمر من الوزير سيء الذكر **أحمد بن أبي داؤد**، حاول أن يجد **للبويطي** منفذا يفلت به من المؤامرة فقال: قل فيما بيني وبينك، أي تظاهر بموافقتهم لتنجو بحياتك! فأجاب **البويطي**: إنه يقتدي بي مئة ألف ولا يدرون المعنى، فإن أجبت أجابوا.

بمأساوية واضحة تصف المصادر رحلة **البويطي** من مصر إلى بغداد، وهو محمول على بغل وفي رجليه سلسلة وزنها أربعون رطلا. مشهد لا يليق حتى بمجرم فكيف برجل قال عنه الشافعي: هذا لساني، وائتمنه على إرثه العلمي! لكن **البويطي** لا يلتفت لأحقاد صغيرة مادام في ثباته صونٌ لجناب الشريعة، لذا ما فتئ يردد: **" إنما خلق الله الخلق ب "كن"، فإذا كانت "كن" مخلوقة فكأن مخلوقا خلق مخلوقا؛ فوالله لأموتن في حديدي هذا حتى يأتي من بعدي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم."**

لم تفلح محاولات إقناعه بالعدول عن موقفه داخل السجن فتم تشديد القيود عليه، حتى قيل أن السجان لفه بالحديد من أعلاه إلى أدناه،فشق عليه الوضوء والصلاة. وكانت تلك شكواه الوحيدة التي أبكت الإمام **الذهلي** وطلابه بخراسان، لما أرسل إليه يلتمس منهم الدعاء لتفريج كربته.

فاضت روح **البويطي** الطاهرة وهو مكبل في قيوده سنة ٢٣١هـ، وانضاف اسمه إلى قائمة الرجال الذين صبروا على الابتلاء في زمان موسوم بغيبوبة الوعي وانقلاب المعنى. وإذا كان المعتزلة قد استفادوا من "ظل" الخليفة لاضطهاد خصومهم، فقد لقوا مصيرا مماثلا زمن الخليفة **المتوكل**، غير أن السؤال الذي لا يتطلب نباهة في الإجابة عنه هو: من المستفيد أولا وأخيرا من تغليب الدموية على اختلاف فكري، تقابل فيه الحجة نظيرتها، وتسعى أطرافه إلى إنضاجه ضمن شروط هادئة؟

ما أشبه الليلة بالبارحة!

مالي وللناس؟

رغم أن الإمام أبا سليمان الخطابي(توفي٣٨٨هـ) كان من أوعية العلم في زمانه، مبرزا على الفقهاء و الأعيان من أقرانه إلا أنه كان يشعر بغربة شديدة بين أهله في بلدته "بست"، فأقبل على العزلة يمتدحها ويعدد مزاياها، لا باعتبارها هروبا من المسؤولية أو هجرانا للأهل، بل لكونها شكلا تعبديا يُجنب المرء لوثة الفتن. يُروى أن روحه الزاهدة في الملذات حملته على تلمس العزلة فيما يدب حوله من مخلوقات. رأى يوما طائرا على شجرة فأنشد شاكيا:

يا ليتني كنت ذاك الطائر الغردا من البرية منحازا ومنفردا

في غصن بان دهته الريح تخفضه طورا و ترفعه أفنانه صعدا

خِلو الهموم سوى حَب تُلمسه في الترب أو نفية يروي بها كبدا

ما إن يؤرقه فكر لرزق غد ولا عليه حساب في المعاد غدا

طوباك من طائر طوباك طِب من كان مثلك في الدنيا فقد سعدا

أفضى هذا الميل القوي للعزلة إلى أن يقضي الخطابي بقية حياته مرابطا على ضفاف نهر "هندَمند" بسجستان،كما أفضى بعدد من

العلماء و الصالحين إلى ترجيح خيار "الهامش" و "الكهف " على مواصلة الاحتدام و التدافع، و التصدي لألوان الانحراف السياسي والفكري و الاجتماعي. بيد أن أسئلة عديدة لا تلبث أن تكتسب وجاهة طرحها كلما استعرضنا سير بعض أهل العلم و الفقه و الصلاح، ممن أثنوا على العزلة قولا وآثروها فعلا، من قبيل:

هل كانت العزلة دائما هي الخيار الأنسب؟

وكيف يمكن تحديد غليان سياسي أو اجتماعي بأنه فتنة يتوجب اعتزالها، و الانصراف إلى تحقيق النجاة الفردية؟

وهل الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية التي تثني على اعتزال الناس في الشعاب، والفرار بالدين من الفتن مطلقة الدلالة، أم مقيدة بسياق تاريخي واجتماعي معين يفرضها ويُلزم بها كل قابض على كتاب ربه وسنة نبيه؟

إن إثارة موضوع العزلة يستمد وجاهته مما يبديه بعض أهل الدعوة والخير من انصراف عن خطتهم الدعوية، وفتور عن القيام بواجب النصيحة والإرشاد، لصدود يلقونه، أو لامبالاة تفرغ كل جهد مما يصبو إليه من ثمار. وغالبا ما يحتج هؤلاء بنصوص السنة وأخبار الصالحين التي تستحث العاقل لاعتزال الناس في الشعاب، أو اتخاذ

البيت صومعة للمؤمن! وقلما يمارس هؤلاء نقدا ذاتيا لأسلوب الدعوة وفحواها، وانسجامها مع متطلبات المجتمع، إذ توجه أصابع الاتهام في الغالب للمتلقي الذي لا يحقق التفاعل المطلوب مع الخطاب، ويسارع على الفور للتخلص من الانحرافات والمعاصي، وإجابة داعي الله!

بالعودة إلى أبي سليمان الخطابي الذي خص العزلة بمصنف شهير،نجد محاكمة عقلية لحجج المنكرين للعزلة، والتفريق بين عزلة الأديان، وهي المنهي عنها شرعا، وعزلة الأبدان التي آثرها جم غفير من العلماء والصالحين، ليخلص في الأخير إلى وجوب التفقه قبل الاعتزال و لزوم القصد و الاعتدال. فالعزلة التي يرتضيها الخطابي مذهبا تعني ترك فضول الصحبة دون التفريط في حقوق العباد، وتعني كذلك السلامة من الآفات الاجتماعية التي يقع فيها المرء بسبب المخالطة كآفة الغيبة والرياء، والسكوت عن المنكر، و التصنع المفضي إلى النفاق،وتطلع النفس إلى زهرة الدنيا بمجالسة الأغنياء. يقول الخطابي:" و الطريقة المثلى في هذا الباب ألا تمتنع من حق يلزمك للناس وإن لم يطالبوك به، وألا تنهمك لهم في باطل لا يجب عليك وإن دعوك إليه، فإن من اشتغل بما لا يعنيه فاته ما يعنيه، ومن انحل في الباطل جمد عن الحق. فكن مع الناس

في الخير، وكن بمعزل عنهم في الشر، وتوخ أن تكون فيهم شاهدا كغائب، وعالما كجاهل."(كتاب العزلة.ص٢٣٧).

في حين يبدو ابن حبان البُستي (توفي ٣٥٤هـ) أكثر تشددا في تبني خيار العزلة، بل هي فعل العاقل الذي يرجو صفاء القلب وعدم تكدر الأوقات في الطاعات. أما العذر الوحيد الذي يسوقه في هذا الباب فهو ما عُرف به الناس من دفن الخير ونشر الشر: "فإن كان المرء عالما بَدعوه، وإن كان جاهلا عيروه، وإن كان فوقهم حسدوه، وإن كان دونهم حقروه، وإن نطق قالوا: مهذار، وإن سكت قالوا:عَيي، وإن قدر قالوا: مقَتر، وإن سمح قالوا: مبذر، فالنادم في العواقب المحطوط عن المراتب من اغتر بقوم هذا نعتهم، وغره ناس هذه صفتهم." (روضة العقلاء ونزهة الفضلاء. ص٨٣). وللمرء أن يتساءل هنا كيف يصلح حال المجتمع، وتخف حدة الشرور و الانحرافات إذا خلا الميدان من المصلحين، وقرر أهل الخير الانسحاب من الحياة العامة؟

أما ابن الجوزي فيؤمن بأن لا عزلة على الحقيقة إلا لعالم أو زاهد. إذ أن مخالطة الناس شر لهما، لأنها تمنع الأول من الترقي بعلمه، و تحجب الثاني عن الأنس بمعبوده. غير أن المتتبع لآراء ابن الجوزي عن العزلة، خاصة تلك المبثوثة في ثنايا كتابه "صيد

الخاطر" يقف على تأرجح بين الفكرة و نقيضها، وتبدل في الموقف بين خاطرة وأخرى. فتارة يرى فيها كل النفع لأنك " لا تكاد ترى إلا شامتا بنكبة أو حسودا على نعمة، ومن يأخذ عليك غلطاتك. فيا للعزلة ما ألذها، سلمت من كدر غيبة، و آفات تصنع، وتضييع الوقت"(ص٢٦٠)،وتارة أخرى ينتقد اعتزال الزاهد لأن زهده لا يتعدى عتبة بابه، وأكثرهم ترك المباح لنيل الحظوة عند الخلق. ويعيب العزلة قائلا " فكم فوتت علما يصلح به أهل الدين، وكم أوقعت في بلية هلك بها الدين"(ص١٣٥).ثم يلجأ في موضع آخر إلى رسم "خطة اعتزال " للعالِم، يصون به علمه، و يحظى بتقدير العامة، تماما كالملوك الذين لم يعظم قدرهم إلا لاحتجابهم عن الخلق:" فإن أردت اللذة و الراحة فعليك أيها العالِم بقعر بيتك، وكن معتزلا عن أهلك يطب لك عيشك، واجعل للقاء الأهل وقتا، فإذا عرفوه تصنعوا للقائك، فكانت المعاشرة بذلك أجود..

وليكن لك مكان في بيتك تخلو فيه، وتحادث سطور كتبك، وتجري في حلبات فكرك..

واحترس من لقاء الخلق وخصوصا العوام..

واجتهد في كسب يعفك عن الطمع، فهذه نهاية لذة العالِم في الدنيا."
(ص٢٣١)

إن مخالطة الناس واستيعاب مشاكلهم، والصبر على أذاهم وعنادهم هو ما يجعل من الداعية محل اقتداء، وليس يصح في الأذهان مطلقا استقامة حال مجتمع انصرف عنه علماؤه ودعاته إلى خلواتهم، وباتت العزلة خيارهم وديدنهم. لقد كانت النبوة استشعارا للمسؤولية تجاه الإنسانية جمعاء، وكدا متواصلا لترميم النفوس ونفي البدع و الانحرافات. فكيف لمن يحمل ميراثها أن يؤثر الوحدة على الجماعة، وينسحب من خضم النزال اليومي ضد تجليات الباطل، وما أكثرها؟! إن الذي يستدل على صواب تدينه بالعزلة، والسلامة من المشكلات، والبعد عن مواقع الفتن لا يدرك أنه بانسحابه ذاك يصبح إنسانا خارج الاجتهاد و العقل والتفكير، يقول الأستاذ عمر عبيد حسنة، لا يخطئ ولا يصيب أيضا،فهو يساوي العدم لأنه يلغي نفسه ودوره و رسالته. ويعيش في المقابر لكن مع وقف التنفيذ، أي وقف الدفن!

مصحة الترمذي

اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون أعدى أعداء الإنسان هي نفسه، وأن تكون في الآن ذاته منطلق التغيير والتحرر من وصاية الجسد على الروح. وفي (الزهد الكبير) **للبيهقي** نقرأ حديثا مرفوعا عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك " ـ٣٥٤ـ.

وضع كهذا يدفع العاقل للبحث في خواص النفس وخباياها، حتى لا يترك لها الحبل على الغارب فتلقي به إلى التهلكة. لكن ما يلفت النظر أن هذا المبحث لم يشغل من المكتبة الإسلامية سوى حيز ضئيل رغم خطورته. وأغلب الكتابات تناولته ضمن سياق أشمل لا يروي غُلة ظامئ، إلا ما كان من أمر **الحكيم الترمذي** الذي أبدى جهدا لافتا لإضاءة أعماق النفس البشرية، وتسليط الضوء على ما يجري من شد وجذب بين داعي الشهوة واللذة، ومجاهدة القلب الكاره للعصيان.

ترك أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي،المشهور بالحكيم، قائمة من المصنفات التي تدل على غزارة تأليفه وسعة علمه، رغم أن

عدد تلاميذه لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة. ويرجح بعض دارسي آثاره أن يكون انشغاله بالمجاهدة وبحث سبل الوصول إلى الله وراء عزوفه عن اتخاذ التلامذة والأتباع، وهو المسعى الذي تنطق به كتاباته عن آفات النفس وسبل رياضتها، وحركة الإنسان عموما في الحياة، مما يحملنا على القول بأنه طبيب نفوس من العيار الثقيل!

ينفذ الحكيم الترمذي إلى أعماق النفس البشرية مستعينا بالآيات والأحاديث الشريفة، والأمثلة والتشبيهات التي تُقرب المعنى، وتصف لكل مريض علته وأسباب الشفاء. ولأن الخطوة الأولى هي معرفة العدو فقد حرص الحكيم على كشف خبايا النفس في محاورة رائعة نقتطف منها ما يلي:

" إنك ذات شهوات، فيك شهوة العز فأنت تهربين من الذل، وفيك شهوة ألوان الطعام فأنت تهربين من البؤس، وفيك شهوة إدراك المنى فأنت تهربين من فوتها. وإنما تضطرين لأنك أِردت أن يكون رزقك في وقت، وأراد ربك في وقت آخر، واشتهيت أن يكون على صفة، وأراد ربك غير ذلك، وأردت من وجه راحة،وأراد ربك من وجه تتعبين فيه، وأردت كثيرا، وأراد ربك أقل من ذلك."

لو تأملنا شكاوى الناس من أحوالهم المعيشية لكان قسط كبير منها راجعا إلى مخالفة النفس للمشيئة الإلهية، ثم اندفاع خلف الشهوات والمعاصي من باب التحدي. فالمرء يُحدث نفسه بحظ من الدنيا فتجد النفس في الحديث طمعا وحلاوة، وتُحدث في صاحبها من الجزع و الحسرة على حطام الدنيا ما يدفعه لتحصيله، ولو من باب الخبائث والشبهات لتسكن نفسه. لذا كان سبيل العاقل والمجاهد قطعُ المنى كي تخمد الشهوات، والانقياد لحكمة ربهم حتى يظهر لهم المسطور في اللوح السابق!

وأما العلاج فيكمن في المجاهدة، وفطم النفس عن العادات واللذات، ثم الإقبال على الله بالدعاء والحمد و الثناء حتى تألف النفس الذكر وتأنس به. ودليل ذلك قوله تعالى: (وجاهدوا في الله حق جهاده) الحج-٧٨-، فأمر بمجاهدة لنفس وفطمها عن أخلاق السوء، ولأن الأمر هائل وعظيم فقد وعد بتخليصنا من وباله بقوله عز وجل: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) العنكبوت-٩٦-.

وإذا فطمتَ النفس عن الشهوات وقعت حرارة الفطام على القلب، فزالت عنه أدناس الهوى، وصقلت التوبة من المعاصي ما يعلوه من نكت سوداء كما جاء في الحديث الشريف. وعلامة القلب

المصقول أن يصير مرآة يطالع فيها العبدُ بهاءَ الحسنات وقبح السيئات، وعجائب تدبير الخالق. ومتى صفا من الهوى أشرق فيه نور اليقين!

كيف يعصي المؤمن؟

إن جواب السؤال يرفع اللُبس لدى من يتصدون للموعظة والإرشاد، وذلك حين يُفرطون في لوم وتقريع مرتكبي المعاصي، إلى الحد الذي يُشعر أغلبهم باليأس من صلاح الحال، و يُنفرهم من التماس سبل الإقلاع والتوبة. أما تشخيص الحكيم فيحيل على المعركة الدائرة بين القلب من جهة، والشهوات والهوى والشيطان من جهة أخرى، حين تشرع الجوارح في تنزيل أثر الإيمان. يقول الحكيم:" **الشهوة تحرك البدن الساكن وتزعج القلب، والشيطان يُمنيه ويزين له، والهوى يميل به ويقوده، فالمؤمن قلبه مطمئن بالإيمان،والتوحيد ظاهر على لسانه. فإذا جاء وقت فعل الأركان عمل فيه الشهوات، وزين له العدو، ومال به الهوى حتى يفعل الفعل الذي يخيل إليك في الظاهر أنه لم يؤمن بعد، فهو موحد بالقلب واللسان، ولكن تغلبه الشهوة وقوتها.**" وحُجته في هذا الرأي قوله تعالى: (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم) الحجرات-من الآية٧-، ومعنى حبب أي جعل أصول الإيمان في حبة القلب، حتى إذا قطع المرء دابر الهوى صفا قلبه واستنار

باليقين، وصار كف الذهب عنده ككف التراب كما روي عن عيسى عليه السلام!

يُنبه الحكيم إلى أن إلحاحه على ترك الشهوات، والتقليل من الطيبات لا يعني البتة تحريم ما أحل الله، وإنما تأديب النفس ورياضتها حتى لا تبالغ في الميل إلى الزينة والطيبات، فتقع في المحظور كالرياء والمباهاة، وتضييع الشكر وأداء الواجبات، وربما خلط الحلال بالحرام والوقوع في الشبهات. وهو احتجاج صائب يستمد وجاهته من القراءة المغلوطة لمعنى قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا) المائدة- ٨٧- فمضمون الآية لا يزكي الانغماس في الطيبات إلى الحد الذي يجعل المرء حبيس لذاته، ويُخمد نور القلب الذي من علاماته: التجافي عن دار الغرور!

يؤمن الحكيم الترمذي بأن فقه النفس الإنسانية، والإلمام بأخص خصائصها شرط جوهري للتحلي بمكارم الأخلاق. ورياضة النفس لا تقل أهمية عن سائر الشعائر والعبادات لما تحققه من سكينة واطمئنان، وتحرر من مخاوف الفقر والجوع ونقص الأموال والثمرات، لأن قلب المؤمن الموقن مطمئن إلى الرزق.. متعلق بالرزاق!

مناديل سعد

أهديت للنبي صلى الله عليه وسلم حلة حرير، فجعل أصحابه يمسونها ويعجبون من لينها، فقال:" أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ خير منها -أو ألين " البخاري.٣٨٠٢

•••

مناديل سعد بن معاذ هي مناقبه، والمناقب في جوهرها مواقف صنعت الرجال، ونظمت بالمحن و الابتلاءات عقدا فريدا حول الرسالة في مهدها. وحين يستحضر النبي صلى الله عليه وسلم اسم سعد بن معاذ في حادثة معينة، فليس القصد فقط هو التذكير بالفارق بين عطاء الدنيا ونعيم الآخرة، وإنما استنفار الذاكرة الحية لأسماء رجال ونساء لا تكتمل السيرة بغيابهم، ولا ينتصب حائط البطولات دون لبناتهم.

إن سفر الإنسانية قد استوعب أسماء عديدة خلدتها المواقف الحاسمة، التي إذا قيست بالعمر الزمني لأصحابها فإنها لا تساوي غير لحظات معدودة. لكن ما تثمره من نتائج، وما تحققه من

مكاسب دعوية أو سياسية أو غيرها يكون له أثره البين، ودوره الآكد في تصويب المسار، وتجديد النظر، ومطابقة الخطى للمساعي النبيلة. وسعد بن معاذ رضي الله عنه أحد هؤلاء العظام الذين حظوا بولادة ثانية ضاق بها العمر الزمني ليتسع لها سفر الخلود. لكن قبل المضي في الكشف عن " أسرار " مناديله لا بد لنا من وقفة مع "كوكب" الأنصار!

يحلو اليوم لبعض شبابنا أن يردد عبارة "كوكب اليابان" كلما استوقفه منجز علمي أو تكنولوجي، أو نمط سلوك انفرد به اليابانيون وسط عالم يضج بالتردي القيمي. وتحرص مواد إعلامية على تزكية هذا الطرح غير عابئة بما يعج به هذا الكوكب الآسيوي من تجليات التذويب الحاد للفرد في بوتقة الجماعة. إلا أننا كمسلمين يحق لنا أن نعتز بكوكب الأنصار الذي قدم للإنسانية أنموذجا حيا للجماعة التي تعلي من قيمة الفرد، وللعقيدة التي تفجر الطاقات و القدرات الخاصة بما يجعل سعادة الفرد وثيقة الصلة بالامتداد الذي تحققه الجماعة، وتبلغه الرسالة.

إن قدوم وفد من الأوس و الخزرج إلى مكة شكل منعطفا حاسما في مسار الدعوة، ونقلة حضارية هامة استشرفت معها الجماعة المسلمة آفاقا جديدة، كما واجهت أسئلة مغايرة لمألوف الاحتدام

اليومي مع الملأ من قريش. ذلك أن استقبال يثرب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومن سبق أو لحق به من المهاجرين فجر العاطفة الدينية على نحو غير مسبوق، وأسس لعلاقات اجتماعية لم يألفها النظام القبلي السائد. فكان عقد المؤاخاة ودستور المدينة محطتين بالغتي الأهمية لصهر التمايزات السابقة ضمن مرجعية واحدة هي: مراد الله ورسوله. وخلال كل الأحداث التي تلت الهجرة أبدى الأنصار تجاوبا عجيبا مع ما قدموه من مواثيق في بيعة العقبة الثانية، وأظهروا من النصرة و الثبات و الوفاء ما يثير الدهشة والتساؤل معا:

فهل كان الإسلام المفاجئ للأنصار حلقة متوقعة في مسلسل الدعوة؟

وهل تكفي التعليلات المقدمة من لدن كُتاب السيرة لتبرير حدث ضخم أربك حسابات المشركين وتوقعاتهم؟

ألسنا أمام كوكبة مختارة سيقت إلى المعترك بموجب المعجزة الحسية لا التخطيط المسبق؟

يقف كُتاب السيرة دائما عند تعليلين اثنين لا يستوعبان برأيي المتواضع ضخامة هذا الحدث. أما التعليل الأول فهو الإنهاك الذي

أصاب الأوس و الخزرج جراء الحروب المتواصلة، مما حذا بهما إلى سرعة الاستجابة لدعوة التوحيد باعتبارها مدخلا للاستقرار واستتباب الأمن، في حين يرتبط التعليل الثاني بالخصومات مع اليهود المجاورين ليثرب، و ما شابها من تخويف بقرب بعثة نبي يوحد صفوفهم لاستئصال شأفة أعدائهم. غير أن الكاتب الإسلامي محمد فريد وجدي يرى أن كلا التعليلين لا يقنعان أي دارس للتطورات النفسية و الاجتماعية للأمم، بل يولدان جملة أسئلة ينبغي إثارتها لاستكمال قراءة متجددة للسيرة النبوية:

فأين كان الأنصار طوال ثلاث عشرة سنة هي عمر الدعوة بمكة؟

ولِم أحجم اليهود عن المسارعة إلى قبول الدعوة وقد بلغتهم بمكة و المدينة؟

وهل من طبعهم أن يفشوا أسرارهم لأعدائهم؟

ثم يمضي الكاتب داحضا كلا التعليلين عبر وضع المسألة ضمن إطار علمي يسمح بتحليلها إلى عناصرها الأولية، فيوضح بأن ما يورده كُتاب السيرة سواء من المسلمين أو المستشرقين حول دواعي اعتناق الأوس و الخزرج للدين الجديد لا يستقيم مع مجريات الأحداث، والمعهود في طبيعة البشر لأسباب أهمها:

- أن وضع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه المستضعفين لا يسمح البتة بالاعتماد عليهم لإخماد فتيل نزاع. بل إن الاتفاق معهم يفتح جبهة إضافية للحرب مع قريش.ولا يصح في ذهن عاقل أن يستكثر من الأعداء في وقت يسعى فيه للبحث عن حلفاء.

- ولا يمكن لقبيلتين جاهليتين ليستا من أهل كتاب، ولا دراية لهما بأمر النبوات إلا ما يترامى من أحاديث عامة اليهود، أن تعتقدا برسالة لم يقم دليل على أن العاقبة ستكون لها، ولا يمكن لأفرادها أن يبذلوا أموالهم ويبيعوا أنفسهم في سبيل نصرة ديانة لم تتكون بعد.

- وأن كلتا القبيلتين لم يعرف عنهما تهذب نفسي أو تطور عقلي يؤهلهما لالتماس غذاء روحي أرقى مما لدى غيرهم من سائر العرب. وهو أمر لم تحققه قريش برغم صلاتها واحتضانها للكعبة، وسهرها على الشأن الديني، فكيف تبلغه قبيلتان لم تدع لهما الحروب المتواصلة فرصة التفكير في شؤون الآخرة.

لم يبق غير تعليل واحد هو أن الحق سبحانه بث في روع القبيلتين هداية إجماعية، قبلتا بموجبها عبء حماية الدعوة الإسلامية ضد العالم بأسره، وهو أمر لن تطيقه في دنيا الأسباب أمة عظيمة. إن

هذا الأمر الجلل، يقول المؤلف، ليس إلا آية إلهية، وكم في السموات و الأرض من آيات يتخيلها الجاهلون أمورا عادية[1]

إن ما يعتبره الكاتب هنا آية إلهية وهداية إجماعية عبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم اصدق تعبير في قوله (لو أن الأنصار سلكوا واديا أو شعبا لسلكت في وادي الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار) البخاري ٣٧٧٩.و ما كان لنبي أن يطابق خطوه مسير كوكبة مختارة إلا إذا كانت أشعة من نور الهداية الرباني قد تسلل إلى شغاف القلوب، فحررتها من شواغل الأرض وهمومها لتتلمس غاياتها في السماء.

أسلم سعد بن معاذ على يد مصعب بن عمير رضي الله عنه ثم عاد إلى مجلس قومه، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا و أفضلنا. قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله. قال: فوالله ما أمسى في دار عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما أو مسلمة! إن هذا المشهد لوحده كفيل باستنفار الأذهان للتساؤل حول سر المكانة التي تمتع بها سعد وسط قومه لتحملهم على التخلص من عقيدتهم وعاداتهم الجاهلية في لمح البصر. فمهما بلغت مكانة القائد وحجم الثقة المتبادلة بينه وبين أتباعه تظل العقيدة خطا أحمر يفرض شدا

وجذبا قد يطول، هذا إن لم يغامر القائد بمكانته و سلطته. لكننا أمام رجل لم تعاند نفسه ما انكشف لها من صحة رسالة الداعي فتلقفته دون تردد وتأثرت به، ثم سرى إلى قلوب كل من حوله سريانا لا تدرك كنهه الألباب، لكن تطمئن إليه أرواح هائمة تواقة إلى دليل!

ويكشف موقف ثان عن معدن هذا الصحابي وعزيمته وقوة شكيمته، والتزامه بما جاء في بيعة العقبة الثانية نصا وروحا. أما النص فالشهود عليه يوم البيعة كُثُر، وأما الروح فتمتد لما وراء الكلمات لتري رسول الله صلى الله عليه وسلم من مواقف السمع و الطاعة و النصرة ما تطيب به نفسه، ويشد من أزره لاستكمال دعوته. وقد كان سعد بطل هذه المواقف، وتجليا لروح الميثاق الذي فوض ليثرب أعباء رسالة ضاقت بها جبال مكة!

حين بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبر مسير قريش لتمنع عيرها يوم بدر قرر استشارة الصحابة قبل ملاقاتهم، فأيد أبو بكر الصديق و المقداد بن عمرو رضي الله عنهما قراره، لكنه أحب أن يسمع رأي الأنصار لأن ما ينص عليه الميثاق هو نصرته في المدينة، ورد كل أذى قد يناله وهو بين أهلها، أما وقد سار بهم لملاقاة عدو خارج ديارهم فأمر فيه نظر! وهنا سيكشف سعد عن معدن قائد يطمح لما وراء الحجب، ولا يؤمن بالمكاسب الظرفية:

- والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟

- أجل

- لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع و الطاعة. فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخصناه ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا. إنا لصُبُر في الحرب، صُدُق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله!

في هذا الرد من الحماس اللاهب و الاستعداد المثير للتضحية ما يعزز الاستثناء الذي حققته بدر في موسوعة المعارك و المواجهات الحربية. إن شعلة إيمان وعزم و استشراف لما وراء الأفق كفيلة بأن تهزم العدد و العتاد، وتربك حسابات أهل الخبرة و الحنكة و الدهاء. وموقعة بدر لم تكن تصفية للحساب مع المشركين وردا على الإيذاء الذي لقيه النبي وأصحابه في مكة فحسب، بل هي أيضا كشف لطبيعة التحول الذي شهدته الجماعة المسلمة بعد الهجرة إلى يثرب، وتصحيح للصورة المغلوطة التي حرصت قريش على تسويقها بين العرب. صورة الداعي إلى "أساطير الأولين "يستميت

حوله حشد من المستضعفين. إن ما لقيته قريش في بدر، وما سيشهده العرب بعدها هو رسالة السماء إلى الأرض، تحرسها كوكبة من الذين هاجروا وصبروا، والذين آووا و نصروا!

ويصر سعد بن معاذ في موقف ثالث على الذود عن روح الميثاق كما التزم قومه بنصه، فيعترض على مبادرة للصلح مع غطفان في حصار الخندق الشهير. ويأبى إلا أن يُقر عين رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة أخرى بثبات يصنع الملحمة: " إنا لصُبُر في الحرب صُدُق عند اللقاء ". ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أحب أن يخفف من وطأة الأحزاب على أهل المدينة فيعطي غطفان شيئا من ثمار المدينة لقاء انسحابها من حلف قريش. ولم يتصرف على هذا النحو إلا لأنه رأى العرب وقد رمتهم عن قوس واحدة، إلا أن سعدا الذي يضع الميثاق نصب عينيه يؤكد على معنويات الأنصار المرتفعة قائلا: " يا رسول الله، قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا قرى -طعام الضيف- أو بيعا. أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا الله وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ مالنا بهذا من حاجة. والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فكان رد النبي صلى الله عليه وسلم: "أنت وذاك ".فتناول سعد بن معاذ

وثيقة الصلح فمحا ما فيها ثم قال: "ليجهدوا علينا".(سيرة ابن هشام.ج٣.ص٢٣٤).

نعم، ليجهدوا عليهم، فهم ورثة السيف كابرا عن كابر، ومادام الله قد أعزهم بالإسلام و النصرة فلن ترهبهم القوى المعادية!

إن معركة الأحزاب، يقول الشيخ محمد الغزالي، لم تكن معركة خسائر بل معركة أعصاب. وأي اهتزاز في الروح المعنوية سيقلب الموازين في طرفة عين. وحين يرى الأنصار ثلث محاصيلهم يذهب إلى غطفان في عز الإسلام،وهي التي لم تقدر على حبة منه في ذل الجاهلية إلا قرى أو بيعا، فإن المعنويات ستنخفض، وقد يغذي المنافقون الخبر بإشاعات و أقاويل مغرضة تفت في عضد الأنصار، فيحدث مالا تُحمد عقباه. ذاك ما ألمح إليه سعد وهو يضع النبي صلى الله عليه وسلم في سياق الاعتراض على الصلح ومبرراته بعد أن تبين له أن الأمر اجتهاد لا وحي.

لقد هيأت غزوة الأحزاب مجالا واسعا لحركة سعد ين معاذ وتألقه، كما نسجت أحداثها المباغتة مناديل تتويجه. وأي تتويج أعظم من الشهادة في سبيل دين آمن به، ميثاق التزم به؟! تنصل يهود بني قريظة حلفهم مع المسلمين وقرروا ممالأة قريش. فلما انتهى الخبر

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل سعدا بن معاذ وسعدا بن عبادة في رجال من الأنصار ليتبينوا حقيقة الأمر،" فوجدوهم على شر مما بلغهم عنهم، ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد و لا عقد ". (سيرة ابن هشام.ج٢.ص٢٢٠).

إنها طعنة من الخلف كشفت لابن معاذ عن طينة اليهود وديدنهم في الغدر ونقض العهود، وهو تصرف سيذكي رغبته في الاقتصاص وفك الارتباط بشكل نهائي مع الوجود اليهودي في يثرب.

أصيب سعد بن معاذ في مناوشات مع المشركين عند محاولتهم اقتحام الخندق. فلما أيقن بالموت قال:" اللهم لا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة ".ولابد لنا هنا أن نستحضر طبيعة العلاقة التي جمعت بين اليهود و الأوس و الخزرج قبل الإسلام،حتى نستوعب عظمة هذا الموقف من لدن سعد، وتقديمه الولاء لله وللرسول على تاريخ من المصاهرة و الحلف. فمما لا شك فيه أن عددا من العرب المنتمين إلى الأوس و الخزرج وغيرها من القبائل الأصيلة قد اعتنقوا اليهودية، إما بتأثير من المصاهرة، أو بفعل النشأة في بيئة يهودية.بل إن بعض أبناء العرب جرى تهويدهم وفاء لنذر، وفي هذا الصدد يروي الإمام أبو داود السجستاني بسنده عن

ابن عباس أن المرأة المقلاة – أي التي لا يعيش لها ولد – كانت تجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تُهَوده. وشكل انضمام فريق من اليهود إلى حلف الأوس وفريق آخر إلى حلف الخزرج مظهرا آخر من مظاهر التفاعل الاجتماعي، برغم ما أبداه اليهود من كيد وتآمر ودسائس لإطالة أمد النزاع بين القبيلتين العربيتين. وحتى بعد قدوم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وإرسائه نظاما اجتماعيا قائما على عقد المؤاخاة، واعتبار المهاجرين و الأنصار أمة واحدة تحكم علاقتها مع اليهود منظومة من الحقوق و الواجبات فإن رواسب من المودة و التعاطف ظلت مستمرة حتى إجلائهم من المدينة. لذا فإن ما أبداه سعد بن معاذ من حرص على الثأر من بني قريظة، وحكمه الصادم في حقهم بين يدي رسول الله لهو أبلغ شاهد على عظمة هذا الرجل وتجريده الولاء لله و المودة لرسوله، وإنه لامتحان قاس يندر خلاله ثبات النفس أمام ما يجيش بداخلها من مشاعر الحنو و الإشفاق على أصهار الأمس القريب و حلفائه ومواليه.

لما نزل بنو قريظة على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل إلى سعد بن معاذ ليحكم فيهم، فأقبل على حمار، فلما دنا من النبي صلى الله عليه وسلم قال: قوموا إلى سيدكم،أو قال: إلى خيركم.

فقاموا إليه فقالوا: يا أبا عمرو، قد ولاك رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر مواليك لتحكم فيهم، فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه؟ قالوا: نعم.قال: وعلى من هاهنا؟ من الناحية التي فيها رسول الله ومن معه، وهو معرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالا له، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم،فقال سعد: أحكم أن تُقتل الرجال، وتُقسم الأموال، وتُسبى الذراري [٢].إنه مشهد صادم ذاك الذي عاشته الأوس وهي تترقب من سيدها، بحسب روايات أخرى، أن يحسن إلى مواليه ويشفع لهم بين يدي النبي كما فعل عبد الله بن أبي بن سلول حين حوصر حلفاؤه من بني قينقاع، فإذا بالحكم يدوي في سماء يثرب معلنا تجريد الولاء لدين الله لا لسواه.

نعم، كان حكما صادما لكنه وافق حكم الله من فوق سبع سموات، كما وافق قانون الحرب في شريعة بني إسرائيل. جاء في سفر التثنية،الإصحاح العشرون:" حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، وتستعبد لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها، وإذا دفع الرب إلهك إلى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم

وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك "[٣].

أبت المشيئة الإلهية إلا أن تمهر مفارقة سعد لعالم الأحياء و الأشياء بتوقيع خاص، وأن تُقرب الأذهان من إحدى تجليات التكريم الرباني لرجل صدق ما عاهد عليه الله ونبيه، فكان اهتزاز عرش الرحمن لموته، وتشييع الملائكة لجنازته، ثم خبر مناديله في الجنة حفزا للأجيال اللاحقة ليكون سيرها في الأرض تحققا عمليا لمقاصد الدين الخاتم.

نبي الطفولة

يلاحظ اليوم في الغرب أن هناك موجة تأليف تستهدف بالأساس تحقيق ما يسمى بالتربية المثالية، سواء من خلال استعراض الأخطاء الواجب تلافيها في تربية الأبناء، أو القواعد التي يجدر اتباعها لتمكين الطفل من تنشئة سليمة. وفي حرصنا على استجداء الغث والسمين، مما أرهق منظوماتنا التربوية بدءا التجريب المزمن، نصر على تجاهل التصورات والرؤى الواثقة والمنسجمة مع هويتنا الإسلامية وعطائنا الحضاري. إن النبي المعلم صلى الله عليه وسلم لم يقف عند حدود التبليغ، بل باشر بنفسه صوغ الحقيقة الإسلامية، وإرساء معالم تربية شاملة تستوعب كافة مناحي الحياة.

حرص النبي صلى الله عليه وسلم على إدماج الطفولة في مخططه لبناء مجتمع إسلامي جديد، وفق معايير اجتماعية مغايرة بشكل واضح لما كان سائدا من قبل. ويشكل القطع مع المألوف الجاهلي في معاملة الأطفال رهانا حضت جملة من الأحاديث النبوية على كسبه، لتثبيت معادلة حضارية مفادها أن بناء المجتمعات لا يمكن أن يتحقق في ظل تنشئة عرجاء أو وضع تربوي مختل! لذا نجد أحاديث عديدة تنص على العدل بين الأبناء، وتكريم الأنثى في

صباها. روى الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من مسلم تدركه ابنتاه فيحسن صحبتهما إلا أدخلتاه الجنة).وفي صحيح البخاري ومسلم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اتقوا الله و اعدلوا بين أولادكم).

بيد أن التكريم النبوي للطفولة لم يسلك فقط سبيل الخطب والعظات والوصايا، وإنما نحا منحى واقعيا تم من خلاله تحديد الإطار الذي ينبغي أن يتحرك داخله المسلم في علاقته بهذه المرحلة العمرية الهامة. وهو إطار يستلهم مبادئ الإسلام القائمة على التكريم والتسخير و الاستخلاف. لذا فإن استحضارنا لبعض صور معاملة النبي صلى الله عليه وسلم للطفل يروم في الحقيقة تثوير الحدث أو الموقف، وكشف ما ينطوي عليه من رسائل وتوجيهات عملية،تثبت أن بعض ما يتردد اليوم من مقولات التربية الحديثة ليس سوى رجع للصدى!

كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما رديف النبي صلى الله عليه وسلم يوما على دابة وهو غلام، فخصه بدرس يعده أهل العلم من أمهات العقيدة الإسلامية: (يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك, احفظ الله تجده تجاهك. وإذا سألت فاسأل الله, وإذا استعنت

فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رُفعت الأقلام وجفت الصحف) **رواه الترمذي**.

غير أن لهذا الحديث أيضا أبعادا تربوية تستوقفنا لفرط تطابقها مع بعض ما بلغته التربية الحديثة من فهم أفضل لعالم الطفولة. إن أول سؤال يقفز إلى الذهن حين نستعيد الحديث ضمن سياق تربوي محدد هو: لماذا اختص الرسول صلى الله عليه وسلم غلاما صغير السن بدرس مثقل بالقضايا الإيمانية، حتى وإن أوجزت في" كلمات"؟ وهل بمقدور غلام آخر يملك صفات وقدرات عادية أن يستوعب الأصول والكليات الجليلة التي اشتملت عليها هذه الكلمات؟ إن الأمر يتعلق حقيقة بصبي غير عادي، تجلى في ملكاته وصفاته دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل". وفي كتب الحديث مواقف أخرى لابن عباس تؤكد تميزه عن سائر أقرانه في التقاط معان وإشارات تفوق سنه،وخصائص مرحلته النمائية. فما الذي تقرره التربية الحديثة في هذا الشأن؟

تخلص الباحثة "**ستيفاني ليرنر**"، بعد تناولها للسير الذاتية لأكثر من ثلاثين شخصية مشهورة، إلى أن المنظومة المجتمعية تقترف خطأ فادحا حين تسعى لتوحيد المعايير التربوية دون مراعاة الفروق الواضحة بين الطفل العادي والطفل "المميز"،الذي يحلق خارج السرب ويسعى لفرض إيقاعه الخاص. ومرد هذا الخطأ، برأي الباحثة، إلى الاعتقاد السائد بأن المطلوب من الأطفال هو الاندماج السلس في محيطهم الاجتماعي، والسير على خطى أترابهم وأقرانهم. في حين أن الطفل الذي يتمتع بصفات غير مألوفة،ويمتلك رؤية خاصة وملهمة لتغيير العالم على نحو إيجابي،لا يمكنه أن يتلاءم مع هذا التوجيه. إن ما يبديه الصغار من تحفظ إزاء المواقف الاجتماعية السائدة أمر لا ينبغي أن يثير مخاوف المربين، بل يجدر بهم حفز تلك الرغبة في التميز والتفرد والتفكير على نحو مختلف، لأن الصفات والميزات غير العادية هي حجر الأساس الذي يساعد الطفل على تحقيق ذاته نحو الأفضل، سواء تعلق الأمر بطريقة في التفكير أو موهبة،أو أي عامل آخر يرتقي به فوق مستوى المألوف، ويجعله استثناء عن الجموع ينبض بالحياة والنشاط.

يجب علينا أن نشجع عنصر التفرد والتميز، تقول **ليرنر**، لدى جميع الأطفال. في واقع الحال نحن نقوم عادة بمكافأة الأطفال العاديين على كونهم متشابهين وغير مختلفين، وهذا بدوره يشكل مفتاح من هم وماهم عليه.مع ذلك، فإن أولئك الأطفال أيضا قد يمتلكون صفات وميزات رائعة ومميزة ولكنها لن تتعزز وتبرز ما لم يتم اكتشافها ورعايتها جيدا.[٢٥] وهي الرعاية التي فطن السلف إلى أهميتها في إمداد عالم الكبار بأفكار ورؤى قد يحجبها التقليل من شأن الطفولة في تغذية أسباب النهوض والتقدم. ولعل من أبرز صور هذه الرعاية حرص الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه على استشارة "الفتيان" في الشؤون العامة، وتخصيص مقعد استشاري لغلام بني العباس إلى جوار أشياخ بدر!

وإذا كان عالم الطفولة خلوا من التكاليف الشرعية إلى حين، فإن الأمر مختلف تماما فيما يتعلق بالتربية على المسؤولية والواجب. لذا نجد النبي صلى الله عليه وسلم يحث على عدم إهمال أي تصرف شاذ بحجة أنه صادر عن طفل غير مدرك لتبعات سلوكه، أو أن المخالفة يسيرة مادام مرتكبها صغيرا لا يعقل. في صحيح

---

[٢٥]– ستيفاني ليرنر: الأولاد الذين يفكرون خارج المألوف. مكتبة العبيكان. ٢٠٠٨. ص ٣٨-٣٩

مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: (أخذ الحسن بن علي رضي الله عنهما تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كخ كخ ارم بها أما علمت أنا لا نأكل الصدقة؟ ".وفي مسند الإمام أحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم أدخل أصبعه في فم الحسن فانتزع التمرة، ثم قال: إنا آل محمد لا نأكل الصدقة.) إن الحنان الأبوي لا يتعارض مع حمل الطفل على التمسك بالحدود والمبادئ المقررة، فالتنشئة السليمة تستلزم قدرا من الحزم والزجر الذي يصون أفعال الصغير عن العبث. غير أن هناك فرقا واضحا بين تنشئة الطفل على الطاعة،وبين تعويده الاحتكام إلى منهاج شخصي للأخلاق يستمد منه قراراته ومواقفه، ويستضيء به في تفاعله مع محيطه الاجتماعي. وتأمل كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينتزع التمرة من فم حفيده فحسب، بل أحاله على الدستور الأخلاقي الذي يحكم " آل محمد"! مؤكد إذن أن الطفل هنا سيُظهر استجابة واعية لما يتطلبه شرف الانتساب من عدم إخلال بالتوجيهات الأخلاقية.

مؤسف حقا أن عددا من المشاكل التي تواجهها الأسرة المسلمة اليوم وثيق الصلة بالتفريط في الحزم و الصرامة الضروريين، لتعويد الطفل الاحتكام إلى مبادئ أخلاقية توجه الفكر والسلوك.

ومؤسف أيضا أن عددا من الآباء يفضلون إرجاء الأمر حتى ينضج الطفل ويصبح جاهزا لتحمل المسؤولية، لأن الطفولة برأيهم استمتاع ولعب وعبث لا يقع تحت طائلة المحاسبة!

هل يبدو الأمر كذلك من وجهة نظر التربية الحديثة؟

يؤكد الباحثان **آلان وروبرت ديفيدسون** على أن الخطر يكمن في تنشئة أطفال مطيعين، يتبنوا في سلبية واستسلام قيم آبائهم وأفكارهم، وبمجرد أن تعترضهم إغراءات بانتهاك تلك القيم لا يملكون القدرة على التصدي لها لأن المعتقدات الداخلية تعوزهم، فتكون النتيجة عند مواجهتهم لموقف معين هي الاستجابات العشوائية والافتراض المتهور. غير أن تعويد الطفل على الإحساس بالمسؤولية والانحياز للمبادئ والقيم لا يمكن أن يتحقق عبر إملاء السلوك الأخلاقي، بل ينبغي أن ينبع من الداخل: من بذور الاستقلالية التي يزرعها الآباء والأمهات لحظة تشكيل الهوية الذاتية لصغارهم:" إن الآباء والأمهات الذين يحاولون أن يملوا سلوكا أخلاقيا معينا على أبنائهم يفاجئوا بأن أبناءهم يتمردون على أبسط الأخلاقيات. لابد للإحساس بالمسؤولية أن ينمو داخليا من بذور الاستقلالية التي يزرعها آباء وأمهات على استعداد دائم لأن يجعلوا أبناءهم يشعرون بمشاعرهم الخاصة ويشكلون هويتهم

الذاتية. يؤمن الآباء والأمهات الناجحين الذين التقينا بهم أن محاولة التأثير على قرارات أبنائهم الخلقية، أو وعظهم بمواعظ معينة هي من أكبر الأخطاء، وهذا لا يعني أنك لا تستطيع أن تشرح وجهة نظرك، بل لابد أن تفعل هذا، هنا يأتي دور الأسلوب المباشر لتعليم الأخلاقيات، لكنه عادة لا يكفي لأن الأبناء بحاجة لمن يعلمهم كيف يعيشون في إطار أخلاقي."[٢٦]

و يكشف لنا حضور النبي صلى الله عليه وسلم في عالم الطفولة بعدا تربويا آخر لا يقل أهمية عما أسلفنا. يتعلق الأمر بتوسيع دائرة الشورى والحوار وفضيلة الإنصات، واحترام الرأي الآخر لتشمل الصغار أيضا، مما يُشعرهم بكرامتهم،ويحررهم من عوامل الخوف والقلق،ويعزز ثقتهم في أنفسهم. روى البخاري في صحيحه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتي بقدح فشرب منه، وعن يمينه غلام أصغر القوم والأشياخ عن يساره. فقال: "يا غلام أتأذن لي أن أعطيه الأشياخ؟ قال: ما كنت لأوثر بفضلي منك أحدا يا رسول الله, فأعطاه إياه". وكيف لا يفعل وهو الذي بعثه الحق سبحانه لتستعيد البشرية حريتها وكرامتها، ودورها في الإعمار وتحقيق مبدأ الاستخلاف؟ وهل

٢٦آلان وروبرت ديفيدسون: كيف ينشئ الآباء الأكفاء أبناء عظاما. مكتبة جرير. ٢٠٠٤.ص ٢٥٥

تنهل التعاليم فاعليتها من غير معين حاملها والمبشر بها؟ إن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء ليبني الشخصية الإنسانية لا ليهدمها، ودعامة البناء هنا هي تعزيز الثقة وبث الروح الإيجابية واحترام الذات. وكون الحرية شرطا للوجود الإنساني يجعل من استحضار عناصرها ومقوماتها في التنشئة ضرورة لا غنى عنها، لتخريج جيل سوي وقادر على مواجهة أعباء النهوض والتقدم. إن هذا الموقف النبوي إزاء الغلام يستحثنا على مراجعة العديد من تمثلاتنا حول الطفولة، وجاهزية الطفل للاندماج في عالم ناضج! تمثلات تستمد مرجعيتها من تقاليد عشواء وموروث يغلب عليه قصر النظر وسوء الفهم.

يحيلنا تصرف النبي صلى الله عليه وسلم مع الغلام على مسلك تربوي مهم تلح الأدبيات التربوية الحديثة على مراعاته ضمانا للتوافق النفسي والاجتماعي للطفل. يتعلق الأمر بحاجته للشعور بأنه محبوب ومرغوب فيه من لدن كل من يتعاملون معه، وأن له قيمة ينبغي أن تُحترم وحضورا يجب أن يُصان. وتغذية الحاجة إلى التقبل والاحترام تُجنب الطفل كل ميل إلى السلبية والانطواء، وكراهية الآخر مما يعزز ثقته بذاته، ويضمن انخراطه على نحو إيجابي في النسيج المجتمعي. تقول أخصائية التربية **كريستين**

دورهام:" إذا أردنا لأولادنا أن يتمتعوا باحترام الذات وبثقة عالية بالنفس، علينا أن نشجعهم على إيجاد حلقة مفيدة (وليس حلقة مفرغة) حيث تؤدي الثقة بالنفس إلى التحفيز، و يؤدي التحفيز إلى طريقة تفكير أفضل وأوسع آفاقا، وتؤدي طريقة التفكير الجيدة إلى الثقة بالنفس " [٢٧].

إن استعراض تصرفات النبي صلى الله عليه و سلم في عالم الطفولة، يكشف الهوة المؤلمة التي خلفها انفصال الفكرة عن السلوك، واحتكام مجتمعاتنا في صوغ سياساتها التعليمية إلى منظومة فكرية متغربة وقلقة، وإلى توجيهات وتوصيات تحيل الجبل الشامخ إلى كومة تراب على حد التعبير الشاعر والفيلسوف الباكستاني **محمد إقبال!** وما لم تبادر الأمة إلى المصالحة مع ذاتها وهويتها عبر تربية تصل الماضي بالحاضر، فإن كل الوصفات المستوردة لن تحقق ما نطمح إليه من تغيير للمسار، وانتفاع راشد بثمار الحضارة.

[٢٧] كريستين دورهام: تنمية الإبداع عند الأولاد. دار الفراشة للتوزيع و النشر. ٢٠٠٩.ص ٢٩

نصيحة الباجي

في غمرة الكتابة، والتأليف في شؤون الدين والفكر وقضايا المجتمع، لم يَغفل ثلة من فقهاء وعلماء الأمة عن توجيه غيض من فيض التهذيب والنصح لأبنائهم. وبذلك حفظت لنا المكتبة الإسلامية نماذج تربوية مشرقة، تحيل على دور الفقيه في الشأن التربوي تنظيرا وممارسة!

نشأ **أبو الوليد سليمان الباجي**(هـ ٤٧٤-٤٠٣) في بيئة علم وصلاح بالأندلس؛ فقد كان أبوه عالما وأمه فقيهة وكذلك جده. وأخذ العلم في بداية حياته على يد أحد فقهاء الأندلس هو أبو بكر بن شماخ. ثم رحل إلى الحجاز وبغداد والشام ومصر طلبا للعلم على يد أكابر الشيوخ في ذلك العصر.

صنف **الباجي** في مختلف العلوم من عقيدة وحديث وعلم كلام وغيرها. وذكره الفتح بن خاقان في (قلائد العقيان) كشاعر مجيد له نظم رائق في الوعظ والزهد؛ منه قوله:

إذا كنت أعلم علما يقينا بأن جميع حياتي كساعة

فلم لا أكون ضنينا بها وأجعلها في صلاح وطاعة؟

وأما الوصية التي أفردنا لها هذه المقالة فهي موجهة لابنيه أبي الحسن محمد وأبي القاسم أحمد. وقد حرص المؤلف على تبليغها لولديه قبل أن يتولى تعليمهما، خشية أن توافيه المنية على حين غرة. وهذا النهج الاستباقي في النصح للأولاد يكشف عن فطنة وتبصر بحال الدنيا التي لا ينبغي للبيب أن يأمن جانبها!

قبل مباشرة الوصية يُذَكر **أبو الوليد** ابنيه بمقصدين هامين لمبادرة النصح هاته، أولهما أن الوالد أنصح الناس لولده، لأنه ليس في الأرض من تطيب نفسه أن يفضل عليه أحد غير الأبناء، وهذا المقصد يُلزمهما الاستماع والامتثال، وقبول النصح.

والثاني أن الولدين ينتسبان لأسرة عريقة في العلم والتقوى والسمعة الطيبة. وتلك ميزة تقتضي الحفاظ على المكانة، فإن استطاعا الزيادة فذاك، وإلا فليتجنبا التقصير.

يخصص **الباجي** القسم الأول من الوصية لما يلزم من أمور الشريعة، فيبدأ بركنها الأول وهو الإيمان بالله، حيث يعرض لما وصى به إبراهيم عليه السلام بنيه، وما نهى عنه لقمان ابنه. وفي استحضار هذا التجلي القرآني للعلاقة الأبوية تجسيد للمسؤولية الخطيرة التي يضطلع بها الأبوان لغرس القيم الإيمانية، وإدراك

للبعد الوقائي الذي ينطوي عليه ركن التوحيد في تحصينه المرء من الزيغ والضلالة والتيه.

ثم ينتقل في إيجاز بليغ إلى عرض بقية الأركان مع التنبيه إلى مقاصدها، وكيفية أدائها بما يحقق الغاية. فيدعوهما إلى التصديق بأركان الإيمان، وحفظ القرآن والعمل به، وطاعة الرسول ومحبته، والحرص لمعرفة سنته.

وفي توجيهه الخاص بمحبة الصحابة ينصحهما بلزوم حسن التأويل فيما شجر بينهم، واعتقاد الجميل فيما نُقل عنهم. كما يوصي بتوقير العلماء،وإقام الصلاة، وأداء الزكاة دون محاباة ولا متابعة هوى، وصوم رمضان، وحج البيت، والجهاد إن كانت بهما قدرة عليه.

ويفرد **أبو الوليد** حيزا للحث على طلب العلم الذي به يتأتى لهما أداء الفرائض. فيتناول فضل العلم ورفعة أهله، ومكانة علم الشريعة بين سائر العلوم. ولأنه يضع بحسبانه إمكانية أن يتخذ الولدان قرار السير في اتجاه آخر، فإنه يدعوهما في حال التقصير عن بلوغ ذلك، إلى التماس الحديث والمسائل على مذهب الإمام مالك، وينهاهما عن قراءة كتب المنطق والفلسفة قبل التمكن في الدين.

وفي الجزء الأخير من قسم الشريعة، يعرض لجملة من الكبائر والمنهيات التي لا يتم إيمان العبد إلا باجتنابها، كالزنا والربا والظلم،وشرب الخمر وشهادة الزور وغيرها. ويُلحق بها آفات تعترض مسيرة الشباب في عصره فتضيع أوقاتهم، وتبطل أعمالهم. حيث ينهاهما عن الاستماع للغناء لأنه يورث الفتنة في القلب، والشطرنج الذي يفسد العمر، والتنجيم الذي يُخرج مُصدقه عن الدين.

أما القسم الثاني من الوصية فيذهب فيه **أبو الوليد** إلى تحديد شكل العلاقات الاجتماعية التي ينبغي أن ينسجها ولداه مع الأقارب والناس عموما، أكان ذلك في زمان السلم أو زمان الفتن. ولا يحيد المؤلف بشكل عام عن مضمون الكتاب والسنة في رعاية حقوق الأهل و الجيران، وصلة الأرحام، وإيثار الأخوة على متاع الدنيا، وغيرها من التوجيهات التي تقلل من نوازع الشر وأسباب القطيعة بين الأفراد.

ويبدو خوف الأب على ابنيه واضحا عند تناوله لآخر وأهم توجيه في هذا القسم من الوصية، وهو المتعلق **بالسلطان**، والموقف من الفتن والاضطرابات التي يمكن أن تحدث، إضافة إلى الاحتياط الواجب اتخاذه في حال قادتهما المشيئة إلى الانضمام لحاشيته. إذ

نجده يحثهما على عدم الخروج على السلطان العادل، والصبر على السلطان الجائر واعتزال الفتن بإغلاق الأبواب وقطع الأسباب حتى يستقر الأمر. كما يدعوهما إلى اجتنابه متى وسعهما ذلك، فإن امتُحن أحدهما بصحبته فلا يطلب لنفسه إمارة، ولا يرغب في جاه أو مال.

يحرص أبو الوليد على توريث الحياد السلبي الذي سبقه إليه جم غفير من الفقهاء إزاء السلطان وشؤون الإمارة. ويبدو وفيا لنهج اعتزال شؤون السياسة، والإبقاء على الفقيه خارج مدار الفتن والقلاقل التي تؤثر على استقرار المجتمع.

ومن جهة أخرى تحيل الوصية على أسلوب مميز من أساليب التربية الوالدية، يسدد به الآباء خطى الأبناء عبر مزج ذكي بين العاطفة وضرورات التأديب والترهيب. وهو المنهج الذي يغيب اليوم عن كثير من الأسر في سعيها لحصر التربية والتنشئة ضمن نطاق مادي محدود، قوامه تلبية الرغبات، وإشباع متطلبات الجسد دون عناية بغرس القيم والعوائد النبيلة.

١- محمد فريد وجدي. السيرة النبوية تحت ضوء العلم و الفلسفة. الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٣. ص ١٤٨م

٢- عز الدين ابن الأثير.أسد الغابة في معرفة الصحابة.ج٢.ص٢٢٢

٣- أبو الحسن الندوي. السيرة النبوية.دار الشروق.جدة ١٩٨٩.ص٢٦٣

هؤلاء صبيانـهم!

تطرح العلاقات الأسرية جملة من المشاكل التي تُعرض حياة الأبناء لهزات نفسية، تؤثر سلبا على اندماجهم في محيطهم الاجتماعي وتفاعلهم الإيجابي مع مكوناته. ولعل أهمها الصدام الناشئ عن حرص بعض الآباء على الانفراد بتحديد المسار الذي يتوخونه لأبنائهم، سواء ما تعلق بالدراسة أو الحياة العملية. فالخوف من المستقبل، والشعور المتزايد بعدم الثقة تجاه ما تبديه الحكومات من وعود وتطمينات، يستحث الأسر للمسارعة بضمان مقعد للأبناء في سوق الشغل بشتى الوسائل، حتى لو تطلب الأمر الوقوع في الحرام واقتراف المعاصي.

إننا نتابع اليوم، بغير قليل من الحسرة، سعيا جارفا من لدن الآباء لتمكين أبنائهم من اجتياز امتحان أو الحصول على وظيفة، أو شهادة عليا بأساليب ملتوية قوامها المحسوبية والرشوة، وردم كل معايير المساواة والكفاءة والاستحقاق. كما تطالعنا وسائل الإعلام بين الفينة والأخرى بوقائع وأحداث، ترخي بظلال قاتمة على مستقبل الأسرة المسلمة. فحين ينفرد الأب بالتخطيط للمستقبل المهني لابنه رغما عن أنفه، وحين يسعى آخر لتوريث منصبه أو

وظيفته أو حرفته، دون أن يولي اعتبارا لما يطمح إليه الابن أو تصبو إليه الفتاة، فإنما يبذر في الحقيقة أسباب قطيعة محتملة أو عقوق أو جفاء. إذ المفروض في الوالدين، بحسب منطوق النص القرآني ومفهومه، أن يأخذا فقط بأسباب الهداية، و أن يقوما بما أوجب الله عليهما من تنشئة صالحة وتربية قويمة، و تلقين للأحكام والعوائد السليمة و القيم. حتى إذا استوى بنيان الابن و اشتد عوده، واكتمل نضجه الفكري والسلوكي وجب عليهما أن يُحرراه من سطوتهما، ويحملاه على تدبير أمر معاشه بما يتوافق ورغباته، وأن يكتفيا بالمشورة التي لا يستغني عنها عاقل.

بين الحق سبحانه و تعالى أن مشيئته جرت بما لا يتفق ومراد كثير من الآباء، فقال تعالى في شأن إبراهيم وإسحاق عليهما السلام (ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) – **الصافات: ١١٣** -، كما حذر من الحب الذي يبلغ حد الافتتان ويفضي إلى المعصية في قوله تعالى (إنما أموالكم و أولادكم فتنة)– **التغابن: ١٥** –

وهو الأمر الذي تنبه له السلف الصالح فكان من دعائهم: (ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين و اجعلنا للمتقين إماما) **الفرقان: ٧٤**.

قال **الفروي**:كنا نجلس عند مالك بن أنس وابنه يحيى يدخل ويخرج ولا يقعد، فيقبل علينا ويقول: إن مما يُهون علي أن هذا الشأن – أي العلم – لا يورث، و أن أحدا لم يخلف أباه في مجلسه إلا عبد الرحمن بن القاسم.أما ابنه الثاني محمد فكان يحضر مجلس أبيه يلعب بطائر له وقد أرخى سراويله عليه. فيلتفت مالك إلى أصحابه ويقول: إنما الأدب أدب الله، وهذا ابني وهذه ابنتي. وقد كانت له بنت تحفظ الموطأ و تحضر مجلس أبيها من وراء باب، فإذا غلط قارئ نقرت الباب نقرا خفيفا فيفطن مالك ويصحح له!

وكان للحافظ **ابن الجوزي**، مفخرة العراق الذي قال فيه الحافظ ابن رجب:" إن مجالسه الوعظية لم يكن لها نظير و لم يُسمع بمثلها.وكانت عظيمة النفع يتذكر بها الغافلون ويتعلم منها الجاهلون، و يتوب فيها المذنبون، و يسلم فيها المشركون " كان له ابن يقال له أبو القاسم بدر الدين، سار في مبتدأ صباه على خطى والده حتى أنه اشتغل بالوعظ زمنا ثم تركه. لكنه سرعان ما مال إلى اللهو والخلاعة ومصاحبة المفسدين. فما كان من ابن الجوزي إلا أن ألف رسالة نفيسة سماها " **لفتة الكبد إلى نصيحة الولد** "، و ضمنها نصائح بالغة الحدب والإشفاق والعتاب لفلذة كبده، الذي توانى عن طلب العلم و اتخذ سبيل المعصية.إن القارئ لهذه الرسالة

يأسره ما يتردد بين سطورها من معاني الحب الأبوي الخالص، ومن نبضات قلب يتحرق شوقا لرجوع ابن عن غيه و ضلاله.و يبدو أن الرسالة لم تحقق مرادها إذ بلغ من عقوق هذا الابن لأبيه أنه، في زمن المحنة التي ابتلي بها أيام الخليفة الناصر، كان سيفا عليه ونكبة موجعة، إذ سطا على كتب أبيه ومصنفاته وباعها بثمن بخس لا يساوي المداد الذي حُبرت به.

ولما مرض الإمام العز بن عبد السلام وعجز عن مواصلة التدريس بالمدرسة الصالحية، أرسل له السلطان الظاهر بيبرس قائلا:عين مناصبك لمن تريد من أولادك، فقال: "ما فيهم من يصلح، وهذه المدرسة الصالحية تصلح للقاضي تاج الدين " ففُوضت إليه!وهذا يدل على عدالة الإمام العز وإيثاره الحق على مصلحة أبنائه رغم أن أحدهم، وهو عبد اللطيف، تتلمذ على يديه وتميز في الفقه والأصول.

و بالمقابل نجد من أئمة السلف وعلمائهم من حرص على أن ينال أبناؤه قسطا وافرا من العلم، وأن يهتبلوا كل الفرص للاغتراف من معينه، دون أن يحمله التعلق الزائد بهم على توريثهم مجلسه أو منصبه. فقد كان لأولاد الحافظ الذهبي حظ من العلم، واشتهر بعضهم حتى طلبه أعيان العلماء، ويعود الفضل في ذلك للأب الذي

اعتنى بتعليمهم و تدريبهم وإحضارهم معه مجالس العلماء، أو بالقراءة عليهم والتصنيف لهم و إجازتهم.

وعُرف للشافعي ولدان أحدهما محمد أبو عثمان الذي ولي قضاء الجزيرة وحلب، وكان الإمام أحمد بن حنبل يقول له:إني لأحبك لثلاث خلال، أنك ابن أبي عبد الله، وأنك رجل من قريش، وأنك من أهل السنة.

كما تفرق الطب والفقه في أولاد ابن رشد الفيلسوف ونبغوا فيهما، حتى ولي بعضهم القضاء في الأندلس و صار ابنه الثاني عبد الله طبيبا للخليفة الناصر الموحدي.

إن مما يسترعي الانتباه في علاقة السلف الصالح بالأبناء هو حرصهم على انتظام جهدهم الفردي في عقد المجتمع المسلم، بمعنى الأخذ بأسباب التربية والتهذيب، و تمتين البناء القيمي والمعرفي دون انفلات عن المفاهيم الإسلامية التي يتوجب على الفرد أن يكون صدى ذاتيا لها، على مستوى التصور والممارسة. قد يقول قائل بأن النماذج الواردة أعلاه تبدو مثالية إذا قيست بحجم التردي، وأشكال الانحراف التي يضج بها المجتمع المعاصر، لكن الحقيقة أنها نماذج بشرية واقعية وقابلة للتحقق، كلما استجابت

النفوس لما يسميه الأستاذ محمد قطب رحمه الله ب "هاتف الصعود"، أي تلك المقدرة والطاقة التي أودعها الله في الفطرة البشرية، ووكل بها ترقية الحياة الإنسانية والصعود بها إلى الأمام، مما يجعل كل مسلم ملزما ببلوغ حدود الكمال الممكن له بحسب استعداداته، وطاقاته واتجاهاته [٢٨]

في كتابهما المفيد و الملهم " **كيف يُنشئ الآباء الأكفاء أبناء عظاما** " يستعرض كل من الدكتور **آلان** و**روبرت ديفيدسون** ستة قواعد رئيسية تشكل تربية ناجحة للطفل وهي: **التواصل، والتهذيب، وتشجيع التطور الفكري،وغرس احترام الذات، و تعليم القيم، وتنمية المهارات الاجتماعية**. ويؤكدان، بعد استعراض قائمة طويلة من الشهادات واللقاءات مع خبراء حقيقيين، على أن جوهر التربية الناجحة ليس هو إعداد الأطفال ليصبحوا تلاميذ متفوقين دراسيا فقط، و لكن ليصبحوا أيضا أبناء ذوي شأن، يمتلكون الثقة بالنفس والحب الحقيقي للحياة، ويتميزون بكونهم اجتماعيين وودودين، ومستمتعين باكتساب الخبرات وأسوياء بصورة رائعة. إنها المقومات ذاتها التي ينهض عليها المنهج التربوي الإسلامي، مع الفرق الواضح في المرامي والغايات، مقومات تحدد الإطار

٢٨محمد قطب: منهج التربية الإسلامية. ج١. دار الشروق. القاهرة ١٩٩٣. ص ٢٣٧

الذي يتحرك بداخله الآباء في علاقتهم بالأبناء، حتى لا ينقلب المسعى النبيل إلى كارثة.

هوامش إلهاء

هل يصح ل" الأنا " الغافية منذ قرون أن تُحمل الآخر وزر سباتها الحضاري؟

ألا ينبغي الكف عن استدعاء فزاعة "المؤامرة"، كلما أثيرت للنقاش أسباب تخلف العالم الإسلامي وتبعيته المفرطة؟

يبدو هذا الرأي الذي تتبناه بعض الأقلام اليوم، أدنى للصواب مادام للتخلف عوامله الذاتية، وأسبابه الداخلية. فالمجتمع المنغلق على نفسه، والرافض للانفتاح إذعانا لمنظومة دينية أو مذهبية، أو بتوجيه من ساسته وزعمائه، لا بد أن يُفضي به الأمر إلى حال من التردي والنكوص، والعجز عن التدبير الأمثل لأزماته. وضع عاشته اليابان مطلع القرن السابع عشر حين فرضت الحكومة سياسة العزلة، بعد انكشاف عجز اليابانيين أمام تغلغل الأجانب ونفوذ البعثات التبشيرية.وعاشته الهند بسبب تعاليم غاندي المؤيدة للانسحاب من الاقتصاد العالمي، والتي قادتها إلى حافة الإفلاس عام ١٩٩١.

أما المجتمع الإسلامي فمجتمع منفتح لا بطبيعته فحسب، بل بفضل التوجيه القرآني الذي يُلزم الفرد بالنهوض الحق بواجب الاستخلاف، ويقرن خيرية الأمة بفاعلية تجاوبها، واستيعابها الحضاريين ل "الآخر" دون تفريط في الثوابت. لذا فاستحضار التوجيه المغرض لانشغالاتها ومساعيها للنهوض والتقدم، والتكييف الخبيث لطموحات أفرادها وآمالهم حتى تظل رهينة التبعية والاستلاب، لهو أمر تفرضه شواهد التاريخ وسياسات الحاضر.

أدرك الغرب بعد تجربته الاستعمارية السابقة أن البعد العسكري لا يمكن أن يحقق نتائج تذكر في معترك تجريد الشعوب الإسلامية من هويتها وشخصيتها، فبناؤها العقدي والقيمي أمتن وأشد من أي ترسانة حربية، وأن الصدام المباشر يضاعف من التحام الأفراد بدينهم وثقافتهم.لذا قرر انتهاج سبيل آخر يعتمد الهدم من الداخل، وتشكيل طبقة عازلة من مريديه وخدامه في كل بلد، تتولى زعزعة الثابت، و التشكيك في قدرة الأمة على الانبعاث مجددا دون عون من الخارج.لم يقف الأمر عند انبهار المغلوب بثقافة الغالب وحضارته، كما ردد ابن خلدون في مقدمته، بل تجاوزه إلى اليقين التام باستحالة أي نهضة أو تطور من خارج المرجعية الحضارية الغربية. وهو ما حرص الغرب على تغذيته معتمدا على

مقدراته العلمية و التكنولوجية، و على الرضوض النفسية والفكرية العميقة التي بذرها مأزق التخلف.

وبما أن الشباب هم الوقود الحضاري للأمة، و رهان مستقبلها وعزتها، فإن تعطيل قواه، و تفتيت روحه المعنوية تصدر الاهتمام في أجندة السياسي، و رجل الدين والاقتصاد على السواء. وحتى لا نستدعي "هوس" المؤامرة كما يلح على ذلك محامو الانبطاح في حضرة الاستنارة الغربية، فلنلق نظرة على هوامش الإلهاء التي تصاغ بخبث و دهاء للإبقاء على المسلم المعاصر في دائرة من التيه والضبابية، وإعاقة المبادرة الذاتية للتحرر من إسار التبعية.

يأتي التنفير من العودة إلى الأصول، و خلق حواجز نفسية تحول دون استنطاق الموروث الثقافي في مقدمة مرامي صناع هذه الهوامش. أما الإلهاء فيتحقق من خلال تسويق إيديولوجيات ورؤى فكرية تُحاط بهالة من الصواب المبالغ فيه حتى تنجذب لها العقول، و ينبري المثقفون لاعتمادها حلا جذريا لكل المآسي والعثرات. ومن يتابع الجدل الساخن الذي حركته" الحداثة "في الوسط الفكري والأدبي، وكيف أن البعض دافع عنها كبديل للارتهان إلى الماضي – العربي الإسلامي تحديدا - دون أن تستوقفه المفارقة بارتداد الحداثة ذاتها إلى ما وراء هذا الماضي بقرون، قلت من يتابع هذا

فله أن يستشف عقم الركض خلف بدائل لم تُحدث أي انكماش في الفجوة المعرفية والحضارية، بل،وهذا هو الأنكى، عمقت جرح الاستلاب والتبعية.

ويتحقق الإلهاء من خلال إدامة الغليان الاجتماعي عبر التوسع في حركة المطالبة بالحقوق لتهم زعزعة الثوابت، و التشكيك في فاعلية الدين ومنظومة القيم. بل و تتم تغذية الاحتجاج من خلال الدعوة إلى اعتماد السياق الأوربي كنموذج مهيمن، ومؤشر مركزي لمدى القرب أو البعد عن الصورة المثلى للمجتمع الإنساني المعاصر! وقد بُحت أصوات كثيرة منذ مطلع القرن الماضي في دعوتها للاحتراز من أي انفتاح غير محسوب على الثقافة الغربية، ومن مغبة الخلط بين استيراد أدوات حضارة ما لتطعيم أسباب النهوض والتقدم، و استيراد قيمها وأنماط عيشها وثقافتها.

و يتحقق الإلهاء من خلال العبث الدائم بشرايين الحضارة في البلاد الإسلامية عبر الزج بها في متاهات التجريب، والسعي الدائم لإغلاق أي منفذ يتيح وصل ما انقطع. و خير مثال على هذا الإلهاء ما يعيشه قطاع التعليم منذ أن قررت البلدان الإسلامية اعتماد نظم التعليم الحديثة؛ حيث راهنت غداة استقلالها على نظريات ووصفات تربوية تنهل من معين فلسفة غربية مقطوعة الصلة

بالسماء. فنشأ جيل غير متوازن القوى، تضخمت بعض نواحي إنسانيته وحياته على حساب البعض الآخر، وأصبحت المسافة بين ظاهره و باطنه، وعقله و قلبه، وعلمه وعقيدته، مسافة شاسعة [٢٩]

والغريب في الأمر أن بعض دول العالم التي وحدتها الثقافة والمذهب الديني والمصالح السياسية، حرصت على استقلال مناهجها التعليمية عن أي تدخل من الشريك أو الجار ذي القربى.فالتعليم برأيها جزء من السيادة الوطنية، و ليس بضاعة تُستورد من الخارج.و قد عبر عن هذا الرأي بوضوح الأستاذ الأمريكي **ج.ب. كونانت** في كتابه (التربية و الحرية) بقوله: "إن عملية التربية ليست عملية تعاط وبيع وشراء، و ليست بضاعة تصدر إلى الخارج أو تستورد إلى الداخل، إننا في فترات من التاريخ خسرنا أكثر مما ربحنا باستيراد نظرية التعليم الانجليزية والأوربية إلى بلادنا الأمريكية ". في حين أن بلدانا أخرى لازالت ترى أعطاب التعليم تقنية محضة، يكفي لإصلاحها خبير إحصاء ومكتب وآلة حاسبة!

بينما يهم المرمى الثاني لصناع هذه الهوامش تجفيف منابع الرجولة، وتحطيم نماذج الاقتداء المبثوثة في طيات التاريخ

٢٩أبو الحسن الندوي: التربية الإسلامية الحرة. مؤسسة الرسالة. بيروت ١٩٧٧.ص ٤٤

الإسلامي.أما الإلهاء هنا فتنبري له المنظومة الإعلامية عبر تصويب كاميراتها، و صفحات مجلاتها و إعلاناتها التجارية نحو نماذج اقتداء بديلة، تختزل الوجود الإنساني في لهاث مستمر خلف الابتلاع والإشباع، وتكديس المنتجات.

إن الانسياق الهائل للشباب خلف صيحات الموضة، و إغراءات الذوبان في هوية الآخر وقيمه ونمط عيشه، تولدت عنه ممانعة غريبة إزاء كل دعوة لمراجعة خط السير. بل هناك اليوم من يرى في مظاهر التغريب والاستلاب تأشيرة عبور إلى عالم متحضر، ومكاسب ينجم عن التفريط فيها الانحدار مجددا إلى مربع التخلف والجاهلية. إنها تبعية لا تقف عند تشبه المغلوب بالغالب في زيه وطعامه و شرابه، بل حتى في مقاسمته لمشاعر الضياع والاغتراب وعبثية الوجود الإنساني.

كما يتحقق الإلهاء لبلوغ هذا المرمى، بالإذكاء المُغرض للرغبة في البطولة والتفوق، وهي سمة رئيسية لمرحلة الشباب المبكر، حيث يتم الهبوط بمستوى البطولة هبوطا شائنا، وتوجيه الشباب ل"

عبادة" أبطال يُحققون الريادة في مجالات لا تفضي سوى لمزيد من التفسخ النفسي، والتفاهة والانحلال (٣٠)

إن صناع هوامش الإلهاء لا يكفون عن تحديث ترسانتهم، والإمعان في تفتيت الهوية والخصوصية و الانتماء للدين والوطن.وضع كهذا يُسائل مناعتنا الذاتية، ويختبر صدق انحيازنا للعقيدة والرسالة وواجب الاستخلاف، بمعنى هل سيقف الأمر عند حدود الصيغ الوعظية الباردة التي لا تروم أبعد من دمعة عين وخفقة قلب؟ أم يفرض واقع الحال استعادة برامج ومناهج التغيير التي أرساها الإسلام؛ تلك البرامج التي تجعل التغيير الإلهي ثمرة لتغيير ما بالنفس، و توجه الطاقات والنوازع الداخلية، وفق ضوابط خلقية وعقلية وسلوكية ليصبح الإنسان عمرانيا بناء مفيدا لبني جنسه؟(٣١)

سؤال مرلا يلتمس إجابة، بل عزائم تقتحم العقبة

٣٠أ. محمد قطب: منهج التربية الإسلامية ج٢. دار الشروق.القاهرة ١٩٩٢. ص٢٦٧

٣١د.طه جابر العلواني: الأزمة الفكرية و مناهج التغيير.دار الهادي. بيروت ٢٠٠٣. ص ١٧

يدعو الله ألا ينام!

تتضافر أخبار التابعين لترسم صورة جيل يكابد لاستئناف السلوك الإسلامي والقيم الروحية، داخل فضاء مجتمعي هبت عليه بوادر الترف، ونالت منه ملابسات انتقال الحكم من خلافة راشدة إلى ملك عضوض.

لكل تابعي قصة تُمدنا بعناصر من الثقافة الروحية التي شكلتها تعاليم الدين الحنيف. هذه الثقافة التي تفند المزاعم القائلة بأن في الإسلام غلبة للنظام التشريعي على المبادئ الروحية والأخلاقية، كما ردد بعض المستشرقين. وفي كل قصة نستشف تلك الحالة الوسطى بين روحانية مغالية ومادية متطرفة، ونقف على تجليات السمو الروحي الذي تستجيب له النفس دون أن يقترن بالضرورة بتعذيب الجسد، والتشدد في حرمانه من نصيبه الدنيوي.

إن القرآن الكريم حين يقرر بأن الآخرة خير من الحياة الدنيا فهو يحدد للإنسان مرتبة الكمال الروحي التي ينبغي أن تتطلع إليها النفوس، دون تفريط في متطلبات الجسد أو حرمان من الطيبات. وهي ميزة لا توجد في غير الإسلام، حيث يصف القرآن ترك

الطيبات عمدا بأنه اعتداء في قوله تعالى:((يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا. إن الله لا يحب المعتدين))المائدة-٨٩، بينما يطالع المرء في باقي التشريعات السماوية والبشرية ألوانا من تعذيب الجسد، والقسوة في تحميل الإنسان فوق طاقته بمبرر روحانية متشددة أو طقوس ومراسيم كهنوتية. ومن شواهد تلك القسوة ما تدعو إليه تعاليم البرهمية من امتناع عن ذبح الحيوان وشق الأرض للزراعة، وتوقف عن العمل بشتى أنواعه، ولزوم صوم أبدي قد لا يتوقف إلا حين تزهق روح الصائم!

يستمد المسلم من إيمانه بالحياة الأخروية قوة روحية تعينه على مواجهة مشاق الحياة وآلامها، وترسم له سبيل الخلاص من ربقة الجسد دون تفريط في حقوقه. تلك هي السمة الغالبة على وصايا النبي صلى الله عليه وسلم الداعية إلى رياضة النفس وفطمها، والتقشف في المعيشة، وتهذيب الروح دون تعذيب الجسد. فلا خروج عن طريق العدل مهما اضطرمت في الفؤاد نار الشوق إلى الله تعالى. لذا تضمنت بعض أحوال التابعين وأخبارهم رسائل تؤكد هذا العدل وتلك الوسطية، وتحث على السير الجميل إلى الله برفق

وأناة. وفي خبر التابعي الجليل **عامر التميمي** ما يؤكد هذا المعنى ويُصدقه!

بعد أن اختط **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه مدينة البصرة لتكون قاعدة عسكرية للمجاهدين في بلاد فارس، نزحت إليها جموع المسلمين من الحجاز ونجد واليمن، وكان من جملة النازحين فتى نجدي يدعى عامر بن عبد الله التميمي.

تدفقت غنائم الحرب على البصرة لتبدأ معالم الثروة و الترف بالتشكل في المدينة الحديثة، لكن ذلك لم يجد هوى في نفس الفتى الذي سارع بملازمة واليها **أبي موسى الأشعري**، فأخذ عنه القرآن والحديث، وتفقه على يديه في الحل والترحال قبل أن يلتحق بساحة الجهاد في سبيل الله.

كانت نفس الفتى تواقة للزهد والإعراض عن زخرف الحياة الدنيا. وسرى بين أهالي البصرة خبر انقطاعه للعبادة حتى عده **علقمة بن مرثد** في مقدمة الثمانية الذين انتهى إليهم الزهد، وتداولت الألسن قصص ورعه وتعففه عند المغنم، لعل أشهرها ما جرى بعد معركة القادسية، حين نزل **سعد بن أبي وقاص** في إيوان كسرى، وأمر عمرَو بن مقرن أن يجمع الغنائم ليرسل خمسها إلى بيت المال

ويوزع الباقي على المجاهدين؛ وبينما كان العمال يحصون الأموال ونفائس الحلي، إذا بفارس يقبل وبين يديه وعاء ثقيل الوزن، مُلئ بروائع الدر والجواهر التي لم تقع أعينهم على مثلها. فوضعه بين يدي العمال. وحين سئل: هل أخذت منه شيئا؟ أجاب: والله إن هذا الحُق وجميع ما ملكته ملوك فارس لا يعدل عندي قلامة ظفر، ولولا حق بيت المسلمين ما رفعته عن أرضه ولا أتيتكم به!

غير أن رحلة زهد **التميمي** لم تخل من ميل إلى الإفراط هذبته العناية الإلهية، حتى لا يكون في السير إلى الله شطط يؤذي الجسد، ويبالغ في فطم النفس عن عوائدها!

سافر **عامر التميمي** يوما في إحدى القوافل، فلما جن عليه الليل توارى عن القوم ثم استقبل القبلة وانتصب قائما يصلي. فلما فرغ من صلاته شرع يناجي ربه، فكان مما قاله:

" إلهي، إنك تعلم أنه لو كانت لي هذه الدنيا بما فيها، ثم طُلبت مني مرضاة لك لوهبتها لطالبها؛ فهب لي نفسي يا أرحم الراحمين..

إلهي إني أحببتك حبا سهّل علي كل مصيبة ورضّاني بكل قضاء، فما أبالي مع حبي لك ما أصبحت عليه، وما أمسيت فيه.."

يحكي الرجل الذي اقتفى أثره لما توارى عن القافلة أن النعاس غلبه، بينما **التميمي** مستمر في مناجاته حتى تنفس الصبح. فلما صلى المكتوبة دعا قائلا:

"اللهم إني سألتك ثلاثا فأعطيتني اثنتين ومنعتني واحدة؛ اللهم فأعطنيها حتى أعبدك كما أحب وأريد"

فلما قام من مصلاه لمح الرجل يرقبه فسأله: أراك كنت ترقبني الليلة يا أخا البصرة؟

فقال الرجل: نعم

فقال التميمي: استر ما رأيت مني ستر الله عليك!

فرد الرجل قائلا: والله لتحدثني بهذه الثلاث التي سألتها ربك، أو لأخبرن الناس بما رأيت.

فلما لمس التميمي إصراره أخذ عليه العهد ألا يفشي سره مادام حيا، ثم أردف قائلا: لم يكن شيء أخوف علي في ديني من النساء، فسألت ربي أن ينزع من قلبي حبهن، فاستجاب لي حتى صرت ما أبالي امرأة رأيت أم جدارا..

والثانية أني سألت ربي ألا أخاف أحدا غيره، فاستجاب لي حتى أني والله ما أرهب شيئا في الأرض و لا في السماء سواه..

والثالثة أني سألت ربي أن يُذهب عني النوم حتى أعبده في الليل والنهار، فمنعني هذه الثالثة.

قال الرجل مواسيا: رفقا بنفسك، فإنك تقضي ليلك قائما وتقطع نهارك صائما. وإن الجنة تُدرك بأقل مما تصنع، والنار تُتقى بأقل مما تعاني.

فرد **التميمي** بعزم: والله لأجتهدن في العبادة ما وجدت إلى الاجتهاد سبيلا!

بين سعي الفرد وعناية الله تعالى، تنهض الوسطية كمرتكز أساسي في ديننا السمح، وتبلغ النية الصادقة بالعبد مرتبة تضاهي ما يحققه الفعل والجهد. وبذلك يوطد الإسلام معالم روحية متوازنة عبر عنها **خليد بن عبد الله العصري** بقوله: ألا إن كل حبيب يحب أن يلقى حبيبه، ألا فأحبوا ربكم وسيروا إليه سيرا جميلا!

إن القرآن الكريم، حين يدعو إلى النظر والتفكر والتدبر والاعتبار، فهو يفسح المجال للقارئ كي يُجري مقارنة بين الآيات المسطورة وأختها المنظورة في الكون من حوله؛ سواء كانت كوكبة الموجودات الدالة على عظمة الخالق، أو آثار الحضارات الغابرة الدالة على فاعلية السنن. غير أن «الحمارية» تؤسس لفصل معيب بين القراءة ومقاصدها الحقة، وأولى تجلياتها: حفظ الحروف وإضاعة الحدود.

المؤلف

دار روافد للنشر الإلكتروني